



سيكولوجية
كل شيء

سونيا فالك
سيكولوجية
الذكاء

ترجمة: أدمد سمير سعد
مراجعة وتدريير: ديفيد فرج

المروءة

مكتبة

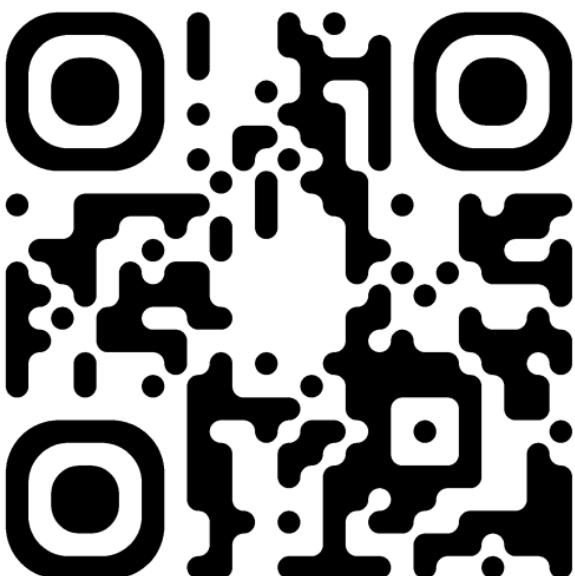
سيكولوجية كل شيء

سيكولوجية الذكاء

سونيا فالك

انضم لمكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط



telegram @soramnqraa

عنوان الكتاب: سيكولوجية الذكاء
The Psychology of Intelligence
المؤلفة: سونيا فالك
ترجمة: أحمد سمير سعد
تحرير: ديفيد فرج
مراجعة لغوية: محمود شرف
إخراج داخلي: رشا عبدالله

المروءة

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157



رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠٢٣ / ٢٦٦٨٥
التقييم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٤-٥٨٥-٥

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحرورة
2024

© 2021 Sonja Falck

"All Rights Reserved"
"Authorised translation from the English language edition published by
Routledge, a member of the Taylor & Francis Group"

سيكولوجية كل شيء

مكتبة

t.me/soramnqraa

سيكولوجية الذكاء

سونيا فالك

ترجمة

أحمد سمير سعد

تحرير

ديقيد فرج

مكتبة

t.me/soramnqraa



المكتبة الوطنية العامة للكتاب

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

فالك، سونيا

سيكلولوجية الذكاء / سونيا فالك؛ ترجمة / أحمد سمير سعد؛ مراجعة وتحرير ديفيد فرج. - ط

القاهرة: مركز المحوسبة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023

155 ص؛ 21.5×14.5 سم (سيكلولوجية كل شيء)

تدمك 978-977-894-085-5

1 - الذكاء

أ- سعد، أحمد سمير (مترجم)

ب- فرج ديفيد (مراجعة وحرر)

ج- العنوان

153

رقم الإيداع 2023/26685

المحتويات

7	سيكولوجية الذكاء	
9	وسائل الإيضاح	
11	شكروعرفان	
13	إيضاح الهدف من الكتاب	
	طريقة جديدة للنظر إلى الذكاء البشري	
25	الذكاء في حياتنا اليومية	1
43	إضفاء المثالية على الذكاء	2
65	الإنقاص من قيمة الذكاء	3
87	تكامل التنوع العصبي	4
113	الذكاء (البشري) التطبيقي	5
139	ختاماً ما المقاربة التي تختارها؟	
153	قراءات إضافية	

سيكولوجية الذكاء

ما الذي يثير إعجابنا بخصوص الذكاء؟ كيف يؤثر الذكاء في حيواتنا اليومية؟ لماذا نخشى الذكاء أحياناً؟ يعتبر الذكاء مورداً حيوياً، مع ذلك تكتنف دراسته الإهمال والمغالطات. يساعدنا كتاب "سيكولوجية الذكاء" في فهم السلوكيات والممارسات الاجتماعية المترابطة التي رأيناها على مر العقود، منذ التصور الذي حرك سياسات وأفعال المؤمنين بالاليوجينيا (تحسين النسل) في الماضي، وحتى ردّة الفعل العنيفة الحالية ضد "الخباء" والتفكير النقدي. يعرض الكتاب كيف أثّرت مقاربتنا للذكاء في حيواتنا اليومية، في الأوساط التعليمية والمهنية والطبية والقانونية، ويسأل الكتاب إذا كان من الممكن رفع الحظر وتجاوز الأحكام المسبقة المحيطة بالذكاء. يتحدى كتاب "سيكولوجية الذكاء" الافتراضات الشائعة، ويشجّعنا على مواجهة الذكاء في أنفسنا وفي الآخرين، واعتباره حقيقة حياتية مهمّة، يمكننا جميعاً أن نستفيد من احتضانه بانفتاح أكبر.

سونجا فالك محااضرة أولى في جامعة شرق لندن، المملكة المتحدة،
معالِجة نفسية ومشرفة مُعتمدة من قبل مجلس المملكة المتحدة
للعلاج النفسي UKCP والرابطة البريطانية للمشورة والعلاج BACP.
تُستَشار شخصيًّا عبر الإنترنٌت دوليًّا، تتحصّص في قضايا العلاقات بين
البالغين ذوي القدرات المرتفعة.

وسائل الإيضاح

الجداول

جدول 1,0 إطار العمل الذي يطرحه الكتاب: ثلاثة عصور مقاربة
المجتمع الغربي للذكاء البشري
الأشكال

شكل 1,2: نقطة مرجعية مفيدة: منحنى الجرس للذكاء البشري

مكتبة

t.me/soramnqraa

شكر وعرفان

أمتُّ لـكل عائلتي وأصدقائي وزملائي وزبائني الذين أَسهموا بطرقهم الكثيرة المختلفة في كتابتي لهذا الكتاب، ودَعْمِوني. أتقَدَّم بشكري تحديداً لإسهامات د. راشيل كلوج، وهاري إيريس، وجوديث بالكازار، وأنطونи هارفيسون، وأندرو وشيرidan، ومايا دومينيك فاي كارليل، والبروفيسور چون رادفورد، وريبيكا هويل، مستشار أول التعليم في بوتشيال بلس.

أشكر دامون فالك لتعليقاته الثاقبة، على الرغم من الاضطرابات الضخمة خلال أزمة فيروس كورونا / كوفيد 19. أشكر محرري في روتليدج: أبييل بيك، التي اقترحت المشروع على وسرّعت من و蒂رته من البداية وحتى التعاقد في زمن قياسي؛ وأليكس هوارد، الذي تولى مسؤوليته حتى ختامه. أتوجّه بتقدير عميق لماكس إيمس؛ لنقده الفعال، الموثوق، المرح، المتبنّى مُسَوَّدة العمل.

أُتوجّه بشكر خاص جدًا لريتشارد هاردينج؛ لكرمه، وتضحياته الكبيرة، لولاه ما تمكّنْتُ من الحصول على معتَكِفٍ رائع للكتابة. كما أُتوجّه بشكر خاص للورانس فالك، الذي أظهر حلَمًا مثيرًا للإعجاب في تحُمُله لفترات تركيز الشديد والضروري لإتمام الكتاب.

إيضاح المهدف من الكتاب

طريقة جديدة للنظر إلى الذكاء البشري

أحب الذكاء. أحبه موضوعاً وظاهره. لكنني أكره أن أخبر الناس أن الذكاء أحد المباحث الأساسية في عملي؛ لأن ذلك يجتذب استجوابات معقدة دائمة. هذا الأسبوع، إذ فجأة، قالت لي معالجة نفسية أشرف على عملها: "كيف يبدو لك عملك معـي؟"، اندھشت من السؤال. سألتها: لماذا تطرحين عليّ هذا السؤال. انهمرت دموعها فجأة. قالت: "لأنك تعملين كثيراً في مجال الذكاء. أخشى أن أكون مُخيبة للأمل بالنسبة لك". أرجو أن يوضح هذا الكتاب أن سبب القلق الذي تملك من الفتاة التي أشرف عليها مفهوم تماماً، ويوضح أن وجهة النظر التي أتبناها تعني ألا داعي لذلك القلق. أرجو أن يساعد هذا الكتاب الناس في أن يتصدوا إلى الطريقة التي ينظرون بها إلى الذكاء وتؤدي إلى ذلك القلق.

يركز هذا الكتاب بشدة على الذكاء البشري، لا على الذكاء الاصطناعي. يشيع حالياً الاهتمام بالذكاء القائم على الآلة، ويندر توجيه الأنظار نحو الذكاء البشري. أرى أن الذكاء البشري مورِّدٌ حيوى، يستحق توجيه الأنظار إليه. لا تجد ضمن مجال علم النفس موضوعاً دُرس بكثافة مثل موضوع الذكاء البشري، أو موضوعاً أكثر إثارة للخلاف منه. يستهدف هذا الكتاب غاية مختلفة عن تلك التي تجدها في الكتب الأخرى التي تدور حول الذكاء البشري. تميل تلك الكتب إلى فحص الذكاء باعتباره سمةً، يمكن معالجتها موضوعياً، وتدقق فيه منهجياً وفق الأساليب التالية: الأسلوب النظري (ينشئ نماذج ماهية للذكاء وكيف يعمل)؛ أسلوب القياس النفسي (يقيس الذكاء بواسطة الاختبارات النفسية)؛ الأسلوب الصيني (يدرس أجزاء الحمض النووي DNA الخاص بنا المرتبطة بالذكاء)؛ أسلوب العلوم العصبية (يبحث كيف يتأثر ذكاونا بتشريح أدمنتنا والطريقة التي تعمل بها).

على العكس من ذلك، يتعرّض هذا الكتاب لنزعاتنا الذاتية تجاه الذكاء. يعني هذا أنه يدرس استجاباتنا الشخصية النفسية والاجتماعية تجاه الذكاء. وكما قال أحد الخبراء الخمسة في مجال الذكاء الذين راجعوا أطروحتي في هذا الكتاب، يرَّكز الكتاب على "الجانب الإنساني" للذكاء، الذي يجري تجاهله غالباً. يعني هذا أنه - بينما يقول هذا الكتاب شيئاً عن كل الأبعاد المذكورة في الفقرة السابقة، ويقدم كذلك الكثير من المراجع في الحواشي حيث يمكنك أن تقرأ المزيد عنها - يرَّكز في الأساس على استكشاف الذكاء باعتباره شيئاً نملك جميعاً ردود أفعال نحوه، ومواقف ومشاعر، وتفسيرات.

أهـدـفـ أـيـضاـ إـلـىـ تـوـضـيـحـ أـنـ عـلـمـ الـنـفـسـ التـفـاعـليـ - interperson al المعنى بالكيفية التي نشعر بها تجاه أحـدـنـاـ الآخرـ، ونفهمـ بـهـ أحـدـنـاـ الآخرـ، يـؤـسـسـ لـالـأـسـلـوبـ الـذـيـ تعـامـلـ بـهـ الـمـجـتـعـ الغـرـبـيـ معـ الذـكـاءـ بـوـصـفـهـ ظـاهـرـةـ. لقد شـهـدـنـاـ عـلـىـ مـدارـ عـقـودـ تـكـشـفـ

استجابات شعورية قوية ومتضاربة تجاه موضوع الذكاء المهم والبارز. يوفر هذا الكتاب اعتماداً على المذاهب النفسية الاجتماعية (النفسية والاجتماعية) التي بيّنتها سبيلاً للنظر إلى الذكاء، يضفي معنى على تاريخه المتناقض والسياسات والممارسات المتعارضة المرتبطة به التي شهدناها على مرّ عقود.

ما الذي تحقق لك قراءة هذا الكتاب؟

عندما تقرأ هذه الجملة، فأنت تقرؤها في لحظة زمنية معينة، وعند هذه اللحظة الزمنية تكون المواقف الاجتماعية والممارسات الثقافية والتعاليم بخصوص الذكاء على ما هي عليه بسبب أمور كانت عاملة في الماضي. بل تؤثر تلك الأمور كذلك في الطريقة التي تقدم بها الكتب المرجعية الشائعة في الوقت الحالي موضوع الذكاء - وقد تبيّن عدم دقة ما تقدمه في الغالب⁽¹⁾. من دون أن تعرف هذا، قد تقرأ مثل هذه الكتب المرجعية ولا تقبض على ما يفسّر تضمينها محتوى دون آخر أو لا تدرك انحيازاتها المحتملة. ربما لا تنتبه إلى الكيفية التي قد يشكّل بها انتقاء المعارف التي تتعرّض لها معتقداتك ومواقفك تجاه الموضوع وربما تخلّف فيك انطباعاً خاطئاً بخصوصه. يدعوك الكتاب الحالي إلى أن تأخذ خطوة إلى الوراء وتفكر في السياق التاريخي والنفسي الاجتماعي الذي تقرأ من خلاله الآن. تكتسب عن طريق فهمك لهذا إطاراً للعمل، يمكنك استخدامه - إذا أردت - من أجل وضع أي كتاب آخر أو مقال قرأته عن الذكاء في سياقه وتقييمه. يمكنك كذلك استخدامه لتقييم المقاربات التي ترى

(1) انظر: Warne et al. (2018)

الناس من حولك يتّخذونها تجاه الذكاء. ويمكنك استخدامه لتقدير مقاربتك الخاصة تجاه الذكاء.

يتضمن إطار العمل الذي أقدمه تقسيم المائتي عام الأخيرة في عمر موضوع الذكاء في العالم الغربي إلى ثلاثة عصور رئيسية. أنظر إلى كل عصر من هذه العصور باعتباره يحظى بشخصية فلسفية مميزة وشخصية سيكولوجية مميزة، وباعتباره يتضمن تغييرًا اجتماعيًّا مناظرًا. يُعرف علماء الاجتماع التغير الاجتماعي على أنه تحولٌ معتبرٌ على مرّ الزمن في الأنماط السلوكية والقيم الثقافية والأعراف، يؤدي إلى تبعات اجتماعية عميقة، لها تأثيرات طويلة الأمد.

ثلاثة عصور وفق التقسيم الفلسفى: الأطروحة THESIS، نقىض الأطروحة ANTITHESIS، التوليف SYNTHESIS

أوضح يوهان فيشته، الفيلسوف الألماني من القرن الثامن عشر، أن تطور المعرفة بموضوع يسير عادة وفق نمط يتضمن ثلاثة مراحل متتابعة⁽¹⁾. في المرحلة الأولى، يُقدم شيء بوصفه محاولة أو فرضية مقبولة، أو صياغة "لأطروحة". بعد هذا، تتنامي معارضة للأطروحة - "نقىض الأطروحة". تبزغ في المرحلة الثانية أفكار جديدة تناقض وتنتفي النظرية. تتنامي في المرحلة الثالثة نظرة عامة محتوى كل من الأطروحة ونقىضها، تحلُّ الخلاف بين موقفيهما المتناقضين وتجلبهما معًا إلى منظور متكامل جديد، "التوليف".

يشكل كل تغيير مرحلي "تحوًلا في النموذج" paradigm shift، بحسب تسمية توماس كون، الفيلسوف الأمريكي من القرن العشرين⁽²⁾. أمَّا

(1) Fichte (1794) يُنسب هذا الكتاب بالخطأ إلى هيجيل Hegel في العادة.

(2) Kuhn (1962)

النموذج فبنية سائدة لنقاط مرجعية للفهم متّفق عليها. مع تحول النموذج يُفتَّد النموذج المقبول سابقًا ويتغير، وهو ما يستجلب بنية جديدة للفهم، ونقاطاً مرجعية جديدة مُتّفقاً عليها.

يُوضّح هذا الكتاب الطريقة التي تفاعل بها المجتمع الغربي مع ظاهرة الذكاء، إذ كشفت عبر ثلاثة عصور عن اتفاق مع نموذج الأطروحة ثم نقيضها ثم التوفيق، على الترتيب. سوف أوضح أن العصر الأول، مرحلة الأطروحة، كانت في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، والعصر الثاني، أو مرحلة نقيض الأطروحة، تلت الحرب العالمية الثانية. وسوف أذهب إلى أننا شرعنا في دخول العصر الثالث منذ عام 2015 تقريباً، وهو العصر الذي يمكننا الوصول إلى التوفيق فيه.

ثلاثة عصور وفق التقسيم النفسي الاجتماعي: إضفاء المثالية IDEALISATION، إنقاذه القيمة INTEGRATION، التكامل DEVALUATION

سوف أبين أن المراحل الثلاث الموصوفة سابقاً تقابل كذلك نمطاً نفسياً، يعمل كثيراً عندما نتفاعل مع شيء -أو شخص- جديد. المرحلة الأولى: إضفاء المثالية؛ عندما ترى الخصائص الجيدة فقط في شخص جديد، مثل الذكاء؛ أو في عملك الجديد؛ أو حبيبك الجديد؛ أو المكان الذي انتقلت إليه- تراه في صورة الأفضل، تضعه في أعلى مكانة، وتري كل شيء آخر بلا أهمية مقارنة به.

في المرحلة التالية، تنتقص من قيمة ما كان مثالياً. تبدأ في ملاحظة الأوجه السلبية. الخصائص السيئة. فجأة لا ترى ما أخذت في التعامل معه خالياً من العيوب، تشعر بالإحباط، وخيبة الأمل والقنوط. عندما تنتقص من قيمته، تتحيّه جانبًا، تشعر بإحراج لأنك ظننته ذات مرة

رائعاً جداً. إذا لم تهجر فعلياً خلال مرحلة إنقاص القيمة ما أخذت في التعامل معه، فإنك تبدأ في تطوير طريقة مختلفة للإشارة إليه.

قد يسمح إيقاؤك للتعامل مع شيء أو شخص بعد مرحلة إضفاء المثالية المبكرة وبعد مرحلة إنقاص القيمة التالية بتطویر نُضج أكبر طبيعية تعاملك مع ذلك الشيء أو الشخص. بدلاً من الطريقة الوظيفية البدائية التي تفصل الجيد (الخصائص المثالية) عن السيئ (الخصائص منتقاة القيمة)، تحل طريقة وظيفية أنضج هذا الانقسام، وتجعل من الممكن بالنسبة إلى إضفاء المثالية وإنقاص القيمة أن يتطولاً إلى تكامل. والآن تصبح رؤية الشيء بكل خصائصه -الجيدة والسيئة- ممكناً في صورة كل واحد مقبول. وللمرة الأولى، من الممكن تبني الواقع كامل بكل تعقيداته الكبيرة.

يؤطرُ الجزء السابق الخاص بالعصور الثلاثة للكيفية التي تعامل بها المجتمع الغربي مع ظاهرة الذكاء: مرحلة النظرية، ومرحلة نقىض النظرية، ومرحلة التوليف. أرى في مرحلة النظرية انغماساً في إضفاء المثالية على الذكاء، تبعتها مرحلة نقىض النظرية، والتي تضمنت إنقاضاً من قيمة الذكاء. وأعتبر أننا بدأنا في الدخول إلى مرحلة التوليف، وتتضمن نُضجاً نفسياً وتكاملاً للمرحلتين الأوليين. يوفر التوليف أو التكامل حلّاً للتوتر والصراع القائم بين هاتين المرحلتين الأوليين. أبى أن هذا الحل يُشكّل تكاملاً للتنوع العصبي-neurodiversity. (نقصد بالتنوع العصبي الطرق المتنوعة التي تختلف بها أدmentنا عن بعضها البعض من حيث البنية والوظيفة); لذلك أشير خلال هذا الكتاب إلى أن العصور الثلاثة مقاربة المجتمع الغربي للذكاء البشري هي: عصر إضفاء المثالية (مرحلة النظرية، مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية); عصر إنقاصل القيمة (مرحلة نقىض النظرية، مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية); عصر التكامل (مرحلة التوليف، ابتداء من عام 2015 تقريباً وحتى الآن).

الإطار المفاهيمي البسيط للكتاب

يمدُّنا الجدول 1، بملخص واضح لإطار العمل الخاص بالعصور الثلاثة الذي يطرحه هذا الكتاب. توضح الفصول التالية عواميد الجدول بشكل كامل. أشير خلالها إلى أدلة من المواد المنشورة والأبحاث والظواهر الاجتماعية من أجل دعم التأثير المفاهيمي، ولكي أبُرِّر سبب تعيني لفترات الزمنية على النحو الذي قمت به. مع ذلك، من المهم الإشارة إلى أنه ثمة رواد سباقون في الفكر يظهرون قبل أن يستجمع التَّغْيِيرُ الاجتماعي الجديد زخمه، وكذلك ثمة مستمسكون بسياسات وممارسات الحقب السابقة إلى أن تنتهي تماماً وتحل محلها الحقب الجديدة. لهذا السبب؛ ينطوي أي تعين للمواضيع الرئيسية أو أي تقدُّم في سلسلة طويلة ومعقدة من الأحداث التاريخية على تبسيط. لكنني عندما أطرح مثل هذا الإطار المفاهيمي البسيط، فإنني أقدم طريقة -أرجو أن تكون مفيدة- للتفكير في التحولات الكبرى في مجال الذكاء كما تبدو لنا إلى الآن وأسبغ معنى عليها. أقوم بذلك بروح ترحب في تمكين القراء من أن يتعرّفوا بوضوح أسلوبي في التفكير في هذا المجال الخلافي، كما أدعوكم إلى طرح أفكاركم الخاصة وملاحظاتكم والمشاركة في النقاش.

جدول 1.0 إطار العمل الذي يطرحه الكتاب: ثلاثة عصور لمقاربة المجتمع الغربي للذكاء البشري

ثلاثة عصور وفق التقسيم النفسي الاجتماعي	التغير الاجتماعي المقابل للمهم	الموقف بخصوص الطبيعة في مقابل التنشئة	الفترات الزمنية التقريرية المضمنة	ثلاثة عصور وفق التقسيم النفسي
مرحلة النظرية	ذروة اليوجينيا	الطبيعة مهيمنة على التنشئة	ما قبل الحرب العالمية الثانية	عصر إضفاء المثالية
مرحلة نقىض النظرية	ذروة الخبرة	التنشئة مهيمنة على الطبيعة	ما بعد الحرب العالمية الثانية	عصر إنقاذه القيمة
مرحلة التوليف	تكامل التنوع العصبي	التوليف بين الطبيعة والتنشئة	ما بعد عام 2015	عصر التكامل

تعريف الذكاء وعلم النفس (السيكولوجيا)

ثمة الكثير من التعريفات المختلفة لما هي الذكاء والكثير من الخلافات القائمة حول أنواع الذكاء. نستعرض وجهات النظر المختلفة في الصفحات القادمة. ولكن -للإيضاح- يشير استخدامي لكلمة الذكاء خلال هذا الكتاب إلى القدرة الإدراكية العامة -ما لم يُنَصَّ على غير ذلك-. وتُعرَف كذلك بـg، كما اكتشفها وعرَفها تشارلز سبيرمان في عام 1904⁽¹⁾. يتوافق هذا مع المنظور "العلمي السائد" لما هي الذكاء،

(1) Spearman (1904)

كما وُضع في عام 1997 في افتتاحية ظهرت في مجلة الذكاء "intelli-gence journal" مصحوبة بـ 52 توجيحاً. يُعرّف الذكاء العام باعتباره "القدرة على التعليل والتخطيط وحل المشكلات والتفكير بتجدد، وفهم الأفكار المعقدة، والتعلّم سريعاً، والتعلّم من الخبرة"⁽¹⁾. إن المقياس الأفضل الذي نمتلكه حالياً للذكاء البشري اختبارات معامل الذكاء IQ المعيارية، والتي تأتي نتيجتها في صورة نقاط تحديد معامل الذكاء. أناقش مسألة قياس معامل الذكاء بشكل نقدي في الفصل الثاني، في ذلك الفصل، والفصلين التاليين، عناوين رئيسية معينة تتعلق بالتنظير للذكاء وقياسه.

يُعرف علم النفس (السيكولوجيا) باعتباره "الدراسة العلمية للكيفية التي يعمل بها الذهن وكيف يؤثر في السلوك"⁽²⁾. قد تتضمن الكيفية التي يعمل بها الذهن فسيولوجيا الدماغ (البنية التشريحية والوظيفية)، بالإضافة إلى مكونات أفكارنا وأنمطتها والعوامل التي تؤثر فيها. وبما أنني أمارس العلاج النفسي وأحاضر في الإرشاد والعلاج النفسي؛ فإن خبرتي واهتمامي النفسيين - خبرتي واهتمامي بالكيفية التي يعمل بها الذهن وكيف يؤثر في السلوك - على صلةٍ ضئيلة بفسيولوجيا الدماغ، وصلة أكبر بمحتويات أفكارنا وأنمطتها، والعوامل التي تؤثر فيها. تتمثل بعض هذه العوامل المؤثرة في الروابط القائمة بين الأشخاص والتفاعلات والخبرات الاجتماعية والعواطف والتعليم (ما علّمونا إياه)، والكيفية التي نفسر بها الأشياء والمحفزات والثقافة والمعتقدات. لذلك يظهر بوضوح هذا الزعم النفسي الاجتماعي الخاص بي والمصحوب بمقاربة علائقية من نوع خاص - وأقصد بها التركيز على الكيفية التي يتعلق بها الناس بعضهم ببعض ويتأثرون بهذه العلاقات - في الطريقة التي أتوجه بها إلى موضوع الذكاء.

(1) Gottfredson (1997: 13)

(2) Cambridge University Press (2020)

لزبائني وتلاميذي (وأصدقائي) جنسيات وثقافات عديدة، ولقد سافرت حول العالم في أنحاء كثيرة. ومع ذلك، نظراً لنشأتِي في جنوب أفريقيا وإقامتي في لندن بالمملكة المتحدة أغلب فترات حياتي وأنا ناضجة؛ تشكّل خبراتي بهاتين الدولتين منظوري. يعني استقراري في المملكة المتحدة أنني سوف أكتب -لا محالة- عمّا تجري عليه الأمور في المملكة المتحدة، لا في أي مكان آخر. أُنجز الكثير من العمل على موضوع الذكاء في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما سنتدبر فيه أيضاً.

أهمية الذكاء

يهدف هذا الكتاب كذلك إلى توضيح الأهمية الكبيرة لموضوع الذكاء. يقدم أدلة على الارتباط الشديد بين الذكاء وبين مختلف النتائج المرجوة في الحياة. أوضح كيف صار ينظر إلى الذكاء في عصر إضاء المثالية باعتباره ذات أهمية عظيمة حقاً، إلا أن تلك الطريقة التي عمِل بها تطوّرت بصورة تنذر بالخطر، وهكذا جاءت استجابة عصر إنقاص القيمة مع رغبة في الإعراض عنه، خالقةً ردّة، تنفي عن الذكاء أي قدر من الأهمية على الإطلاق.

أذهب إلى أنه من المأمول في عصر التكامل ذمج معلومات دقيقة عن الذكاء بمساحات تعليمية كثيرة وهذا لا يعود ثمة إنكار أو تجاهل لأهميته، ولكن من اللازم بالتأكيد التعامل معه بشكل مختلف عمماً كان عليه الحال في الماضي. وبهذه الطريقة من الممكن صياغة مسار واقعي للتقدم إلى الأمام، أكثر توازناً وإنسانية من أجل المستقبل. دعا كتاب آخرون⁽¹⁾ إلى ضرورة تحسين التعليم فيما يتعلق

(1) Woodley of Menie et al. (2018); Warne et al. (2018)

بموضوع الذكاء، وقد انعقدت نيتني على أن يسهم هذا الكتاب في تحقيق هذه الغاية.

بنية الكتاب

بعد المقدمة القصيرة الحالية، يركز الفصل الأول على كيفية استخدامنا للذكاء في حياتنا اليومية، كيف نشعر حياله، وكيف يجعلنا الذكاء نشعر حيال أنفسنا وحيال بعضنا البعض. كُرِّست الفصول الثلاثة التالية (الفصل الثاني والثالث والرابع)، لاستعراض الطريقة التي تعاطى بها المجتمع الغربي مع ظاهرة الذكاء في خلال العصور الثلاثة، وهي العصور التي وضعنا الخطوط العامة لها سابقاً. يقصد كل فصل إلى مسائل محورية معينة - قياس الذكاء ونظريات الذكاء والبحث في الذكاء والتمييز بناء على الذكاء والسيكولوجيا القائمة خلف الذكاء - من أجل توضيح كيف اختلفت هذه المسائل المحورية عبر العصور المختلفة. يستعرض الفصل الخامس ويناقش كيف جرى التعامل مع الذكاء في السياقات المعاصرة المختلفة - التعليمية والمهنية والطبية والتشريعية - موضحاً علاقـة العصور الثلاثة بذلك. ينتهي الكتاب بفصل ختامي قصير يُرسخ لهذه الطريقة التي تضفي معنى على تاريخ موضوع الذكاء البشري ووضعه الحالي. يؤكـد على أنـا إذا أردنا أن نغير من مقاريبـنا للذكاء، نحتاج أولاً إلى فهم السيـكولوجيا القائمة من خلفـه والتصـدي لها. أنت مدعـو لاختـيار المقارـبة التي ترغـب في انتـهاجـها نحوـ الذـكـاء: أشـجـع القراء علىـ النظر إلىـ الذـكـاء باعتـبارـه حـقـيقـة منـ حـقـائقـ الـحـيـاة؛ إذـ منـ المـفـيدـ لـنـا جـمـيعـاً مـواـجـهـتها وـتـبـيـنـها بشـكـلـ أـكـثـرـ انـفـاتـاحـاً.

1

الذكاء في حياتنا اليومية

حان موعد الجلسة الأسبوعية لواحدة من زبائني المنتظمين، إيـدا (ومن أجل الحفاظ على خصوصيتها؛ هذا ليس اسمها الحقيقي). دلـفت إيـدا إلى حجرة الاستشارات الخاصة بي، يـبدو كأنـما تجهـز نفسهاـ كـي تـشير أـمـرـاً صـعـباً مـعـيـ. رـقـدت عـلـى الأـرـيـكـةـ، اـسـتـنـشـقـتـ عـمـيقـاـ، وـقـالـتـ: "ـثـمـةـ أـمـرـ أـتـجـبـ إـثـارـتـهـ مـعـكـ. إـنـيـ أـتـجـبـ مـوـضـوـعـ الذـكـاءـ". اـبـتـعـتـ كـتـابـكـ (ـالـذـكـاءـ الـمـفـرـطـ)، لـكـنـيـ أـتـجـبـ قـرـاءـتـهـ". اـسـتـمـرـتـ فيـ حـدـيـثـهـاـ لـتـحـكـيـ لـيـ قـصـةـ تـفـطـرـ القـلـبـ عـنـ خـبـرـ مـرـتـ بـهـ وـهـيـ طـفـلـةـ، حـدـدـتـ مـنـذـ ذـلـكـ الـوقـتـ مـشـاعـرـهـاـ تـجـاهـ ذـكـائـهـاـ وـذـكـاءـ الآـخـرـينـ، وـكـيـفـ تـسـتـجـيبـ إـلـىـ الـمـوـضـوـعــ. أوـ تـجـبـهــ.

مرـتـ إيـداـ بـتـنـشـئـةـ مـضـطـرـبـةـ وـعـانـتـ مـنـ إـهـمـاـنـ خـطـيرـ فـيـ الـبـيـتـ حيثـ إـدـمـانـ الـكـحـولـ وـإـسـاءـةـ الـمـعـاـمـلـةـ. لمـ يـلـقـ أـحـدـهـمـ بـالـأـلـاـ مـاـ كـانـ تـكـابـدـهـ لـتـحـيـاـ. كـانـتـ تـهـربـ فـيـ الـغـالـبـ مـنـ الـمـدـرـسـةـ، غـيرـ قـادـرـةـ عـلـىـ

الإمساك بزمام الأمور كافة. مع ذلك، كرست حياتها من أجل مادة واحدة: علم الأحياء (البيولوجيا). أحبته واستغرقت تماماً في القراءة فيه. وفي أحد الأيام، شدّها معلم البيولوجيا جانباً وقال لها: "لا أعرف لماذا تقضين كل هذا الوقت في القيام بكل تلك القراءات. لا جدوى من ذلك؛ لأنك لن تصبحي إلّا متسرّبةً اجتماعيًّا".

في مدرسة إيدا، ترتبط الاهتمامات الأكاديمية والإنجازات بالذكاء، وهو الأمر المعتمد. أعجبت إيدا بإجاده هذا المعلم في مادته، واعتبرتها دلالةً على ذكائه، لكنها مررت بخبرة استخدم فيها ذكاءه ضدها، لكي يلفظها. أعلن أن انخراطها الأكاديمي في غير محله بالنسبة لها، وهو ما جعلها تشعر بأن الذكاء شيء يمتلكه الآخرون، ونمیزه فيهم، لكنه يغيب عنها، ويستتبع ذلك أن ذكاء الآخرين شيء قد يؤذيها.

بدأت بقصة إيدا كمثال لكيف تتشكل مشاعرنا إيجاباً أو سلباً تجاه الذكاء في بدايات طفولتنا. لكلّ منّا، إذا أخذنا لحظة للتفكير في الأمر، قصة تخصّه عن كيف أثرت الخبرات التي مرّ بها في أثناء نشأته في منظوره و موقفه تجاه الذكاء. قد تركنا خبراتنا مع شعور بأننا أغبياء جداً في العموم، أو أذكياء جداً في العموم. بعدئذ يصيغ ذلك التصور عن الذات self-concept افتراضاتنا حول الكيفية التي يرانا الآخرون وفقاً لها وما يتوقعونه منّا، بالإضافة إلى ما نتوقع أننا أنفسنا نقدر عليه⁽¹⁾. يؤثر هذا بدوره على الكيفية التي نتصرف وفقاً لها، يؤثّر على المهام التي نضطلع بها أو نتجنبها. يركز هذا الفصل على ما نشعر به حيال الذكاء، كيف يجعلنا الذكاء نشعر حيال أنفسنا، وحيال بعضنا البعض، وكيف يتجلّى الذكاء في حياتنا اليومية. يبدأ كذلك في استكشاف ما قد يُشكّل "الغبي" أو "الذكي".

(1) Dweck (2000)

الذكاء في كل مكان

الذكاء موضوع يؤثّر في كُلّ واحد مِنَّا. نفحص على مدار هذا الكتاب كيف تكمّن تصوّراتنا وأحكامنا المسبقة وافتراضاتنا بخصوص الذكاء وراء الطريقة التي تُبْنى بها أنظمتنا التعليمية، والطريقة التي تُسَيِّرُ أفعالنا، والطريقة التي نعامل بها بعضنا البعض. إذا أثار إعجابنا شيء قام به شخص، نصفه غالباً بأنه ذكي. وإذا التقينا شخصاً ينتهك توقعاتنا السلوكية -معنى آخر: شخصاً يقوم بشيء لا نحبه- نصفه بأنه غبي⁽¹⁾. ونصدر تقديرات طوال الوقت -من دون وعيٍ مِنَّا في الغالب، وفي التو والحال- بخصوص مستوى ذكاء الناس الذين نلتقي بهم. نحن جيدون للغاية بالفعل في هذه التقديرات. أظهرت الأبحاث ارتباطاً كبيراً -أكبر بكثير من أن يكون قد حدث مصادفة- بين ذكاء الأشخاص المقاس وما يتصوّرُه الآخرون عن مستوى ذكائهم، بناء على ما تبدو عليه وجوههم⁽²⁾ وكيف يتصرفون، بما في ذلك استخدامهم للغة⁽³⁾ وسلوكهم غير اللفظي⁽⁴⁾. على سبيل المثال؛ تتضمّن ملامح الوجه الثابتة المرتبطة بالذكاء طول الوجه، والمسافة بين حدقة العينين، وحجم الأنف: نتصور أن أصحاب الأوجه الطويلة والعيون المتبااعدة والأأنوف الكبيرة أكثر ذكاء⁽⁵⁾. تتضمّن اللمحات المؤقتة -ونقصد بها تلك اللمحات التي قد تتأثر بالتعب مثلاً- المرتبطة بالذكاء انفتاح الجفن واعوجاج الفم: نتصوّر أن أصحاب العيون المفتوحة وأركان الفم المنحرفة للأعلى أكثر ذكاء⁽⁶⁾.

(1) Aczel et al. (2015)

(2) Lee et al. (2017)

(3) Reynolds & Gifford (2001)

(4) Murphy et al. (2003)

(5) Lee et al. (2017)

(6) Lee et al. (2017)

ومن حيث السلوك، نتصور أن ذكاء الأشخاص يزداد كلما حافظوا على قاماتهم مستقيمة، واستجابوا لشركائهم في المحادثات، واحتفظوا بعيون محدقة في أثناء إنصاتهم لشخص وفي أثناء حديثهم، وكان حديثهم أوضح وأسرع واستخدمو إيماءات أيديهم في أثناء الحديث⁽¹⁾. يدفع التململ الآخرين إلى القيام بتقدير منخفض لذكائهم⁽²⁾. ملخص الأمر أن السلوكيات التي نتصور أنها سلوكيات ذكية تتمثل في أن تكون مشتبكاً ومنتبهَا ويقظاً.

لهذه التقييمات التي نجريها جميعاً تأثير كبير في المواقف الاجتماعية؛ إذ يؤثر البحث عن تشابه في الذكاء في الكيفية التي نختار بها أصدقاءنا وأحباءنا: أكدت الأبحاث أنه عند إهمال الاختلافات في النوع والعرق والمتغيرات الأخرى، يحصل الأطفال على أصدقائهم المفضلين عن طريق توطيد علاقاتهم بأقران يتطابقون معهم بشدة من حيث الذكاء⁽³⁾. اتضح أن هذا صحيح أيضاً فيما يتعلق بالعلاقات الرومانسية، حيث يختار الناس رفاقهم بناء على التشابه في الذكاء، لا التشابه في الشخصية أو السمات الجسمانية⁽⁴⁾. تطرح مصادر مختلفة أن العلاقات الشخصية والمهنية تفسح المجال "لمساحة من التفاوت المقبول" بين الأشخاص تُقدر بـ 20 نقطة في مُعامل الذكاء⁽⁵⁾، وأن فارقاً في معامل الذكاء أكبر من 30 نقطة يمثل عائقاً منيعاً أمام التواصل⁽⁶⁾.

يُصدر من يجرون المقابلات في جلسات التوظيف أحکاماً على ذكاء المتقدمين لشغل الوظائف، قد تؤثر تلك الأحكام بعدئذ في قرارات

(1) Murphy et al. (2003)

(2) Murphy et al. (2003)

(3) Boutwell et al. (2017)

(4) Plomin & Deary (2015)

(5) Webb et al. (2016: 24)

(6) Towers (1987)

التعيين⁽¹⁾. عندما نختار قيادات العمل، نفضل الأفراد الذين نراهم أكثر ذكاء⁽²⁾. تؤثر مستويات مُعينة للذكاء بين القادة والأتباع في السياقات المؤسسية على نجاح القائد: نجد كذلك أن تفاوتاً في معامل الذكاء يزيد عن 30 نقطة، يتسبب في فشل القيادة⁽³⁾.

تبزغ من هذه الاكتشافات ملاحظة مفتاحية: إن الذكاء شيء يلاحظه الناس دائمًا ويتحررون عنه في بعضهم البعض، حتى لو لم يفكروا علنيًا في كيفية قيامهم بهذا أو يتحدثوا عنه. يتضح من هذا أن الذكاء يعامل بوصفه سمة، تتفاوت مستوياتها بين الأفراد، وأن مبدأ التوافق مهم: تنجح العلاقات الشخصية والمهنية بصورة أكبر حيالما ازداد تنااسب مستويات الذكاء بين الأفراد. يعتبر الإنجاز الناجح للمهام مساحة أخرى، تناسب الذكاء ضروري فيها- والمقصود في هذه الحالة، تناسب الذكاء مع متطلبات المهمة.

استخدام الذكاء في الحياة اليومية: تناول الذكاء مع المهام

ومرة أخرى، لا نفكر غالباً بشكل واعٍ في تنااسب الذكاء مع المهام، إلا أنه لا يخرج عن عمليات الاختيار التقليدية في السياقات التعليمية والمهنية. ثمة دستان من الأنشطة اليومية، تتطلب مستويات مختلفة من الذكاء ويختار الناس بأنفسهم القيام بالمهمة أو تجنبها وفقاً لما يجدونه من تنااسب إدراكي مريح. على سبيل المثال، يتضح هذا في لندن في الاختيارات المتاحة في العديد من محلات السوبرماركت للكيفية التي يمكنك أن تدفع بها أثمان مشترياتك. (على الرغم من أن علينا أن

(1) Judice & Neuberg (1998)

(2) Spisak et al. (2014)

(3) Simonton (1984)

ننتبه إلى أن أي مهام يختار الشخص أن يضطلع بها أو أن يتجنّبها في لحظة ما لا ترتبط بمستوى القدرات الإدراكية الفعلية فقط. يتأثر الاختيار بالكثير من العوامل الأخرى، بما في ذلك التصور عن الذات -كما أوضحناه سابقاً- والدافع، بالإضافة إلى الطاقة التي يمتلكها الشخص ويستعد لبذلها. مع ذلك، تشير الفقرات التالية إلى استخدام تكنولوجيا الحياة اليومية، وقد بيّنت الأبحاث أن سهولة استخدام تكنولوجيا الحياة اليومية ترتبط بالقدرات الإدراكية، وأن الأشخاص الذين يعانون من صعوبات إدراكية يصارعون لكي يستخدموا مثل هذه التكنولوجيا⁽¹⁾.

تتمثل طريقة التَّبُضُع التقليدية والأبسط من حيث التفكير كذلك في أن تملأ سلة مشترواتك ثم تقف في طابور عند نقطة تسجيل المشتروات والدفع، حيث يقوم بذلك موظف الخزينة. تمرر مشترواتك لذك الشخص، والذي يسجلها من خلال ماكينة الدفع. ثم يخبرك كم عليك أن تدفع، ويأخذ منك مدفوعاتك ويتمم العملية من أجلك. لا عليك أن تفكّر في أي شيء بنفسك، ولديك شخص آخر يساعدك طوال الأمر في هذه المهمة.

يتمثل أحد البدائل المتطورة والحديثة نسبياً، والذي يتطلّب قدرة إدراكية أكبر، في أن تملأ سلّتك ثم تأخذها إلى نقطة تسجيل المشتروات والدفع بنفسك. عندها تمسح كل مشترواتك ضوئياً بنفسك وتنفذ عملية الدفع بنفسك أيضاً. تتطلب هذه الطريقة في الدفع القدرة على أن تشق طريقك بنفسك عبر التكنولوجيا الازمة للعملية، تبدأ الخطوات المطلوبة، وتستكملاها بشكل سليم وفق الترتيب الصحيح. أما البديل الأحدث والأكثر تطلاعاً للقدرات الإدراكية من بينها جمِيعاً، فيتمثل في أن تستخدم تليفونك الذي في كل مرة تأخذ فيها

(1) Rosenberg et al. (2009); Hallgren et al. (2014)

عنصراً من فوق الرف لتمسح العنصر ضوئياً قبل أن تضنه في سلتك. (أو يمكنك باستخدام هذا البديل أن تضع العنصر في حقيبة تسوقك مباشرة). وفي نهاية هذا التسوق، عليك أن تقوم بعملية أخرى عند نقطة تسجيل المشتريات والدفع بنفسك، تتضمن مسح تليفونك ضوئياً باستخدام الآلة، واستكمال المعاملة بشكل صحيح، مع تنفيذ عملية الدفع.

توفر هذه الطريقة الأخيرة للمتسوقين الاستقلالية الأكبر وتقليل الوقت الضائع في نقاط تسجيل المشتريات والدفع. كما تمنح محلات السوبرماركت القدرة على خفض النفقات عن طريق تقليل عدد أفراد الطاقم ونقاط تسجيل المشتريات التي يحتاجون إليها. مع ذلك، فهذه الطريقة هي الأقل استخداماً كذلك. إن عدد الأشخاص الذين سيختارون طوعاً القيام بهما تتضمن أعلى مستويات الاستقلالية والتعقّد من بين عامة الناس أقل القليل، ويتوافق هذا بصورة عامة مع توزع الذكاء بين عامة الناس (انظر منحنى الجرس الموضح في الفصل التالي). نحتاج إلى ذكاء أكبر من أجل أن نتعلم ونتقن المهام المعقدة.

وبالنظر إلى مستويات الذكاء المتنوعة بداخل المجتمع، من اللازم توفير وسائل أو طرق مختلفة لإنجاز المهام الضرورية الأساسية، مثل القيام كل أسبوع بتسوق الطعام. ومن اللازم أن تكون ثمة طرق لتحديد الأفراد المناسبين للقيام بالوظائف الاجتماعية الضرورية ذات درجات التعقيد المختلفة. على سبيل المثال، تتمثل واحدة من المهام الأسبوعية البسيطة والضرورية وقليلة المخاطر في إبعاد القمامات عن المنازل. تتمثل واحدة من المهام المعقدة وشديدة الخطورة في التحليق بأمان بطائرة غالية الثمن وعالية القدرة وشديدة السرعة، إذ يتحمل القائم بها مسؤولية مئات الأرواح، سواء كانت الطائرة طائرة ركاب نفّاثة تجارية أو طائرة مقاتلة في زمن الحرب. وهكذا، يصير العثور

على طريقة لتقسيم الذكاء عنصراً مفتاحياً لعمليات الاختيار التقليدية في السياقات التعليمية والمهنية التي تسعى إلى التوفيق بشكل مناسب بين القدرات الإدراكية والمهام. تستطيع قلة قليلة من الناس أن تنجح في القيام بهذه الأعمال البطولية؛ لذلك يجبذب الإنها الماهر للمهام شديدة التعقيد الانبهار والتقدير، إلى جانب تأمين مراكز في المجتمع تستلزم إنجاز مثل هذه المهام بفعالية.

ابهارنا بالذكاء

ربما يكون الكاتراز أشهر سجن "فائق التأمين"⁽¹⁾ صمم يوماً افتتح بوصفه إصلاحية فيدرالية في عام 1934، أُنشئ في جزيرة صخرية لا يمكن اختراقها قبالة ساحل سان فرانسيسكو، بالولايات المتحدة الأمريكية، تحيط بالجزيرة موجات مدّ وجزر سريعة وهائجة وباردة، تجعل السباحة مستحيلة عملياً. أقرب نقطة شاطئية على بعد ميل ونصف. احتوت المباني الأربع المهجورة حالياً في الجزيرة على 600 زنزانة، حوائطها من الخرسانة المسلحة بسمك 18 بوصة، وواجهاتها من الفولاذ. تواصل كشافات الضوء مسح الأرضي من أبراج مسلحة بالبنادق. وطوال 30 عاماً تقريباً من التشغيل امتلكت قلة قليلة جداً الجرأة لمحاولات الهروب.

وعلى عكس كل التوقعات، اختفى ثلاثة من النزلاء في ليلة 11 يونيو 1962 من دون أن يعثر أحدٌ على أثر لهم. كان من المفترض أن يصحبهم سجينٌ رابع: ألين ويست، لكنه واجه مشكلة في ليلة الهروب، تسبيّبت في أن يتركوه من خلفهم. بعد ذلك، وافق أن يتحدث عن تفاصيل تخطيدهم المتقن لمحاولة الهروب. كان فرانك موريس العقل

(1) Esslinger & Widner (2017: 5)

المدبر وراء الأمر كله، عمره 35 عاماً، قضى حياته يمارس جرائم تتعلق بالسرقة. اشتملت خطة الهروب على التعاون مع زملائه الممساجين لتوفير المواد ببراعة لابتکار الأدوات والمعدّات التي يحتاجون إليها، وتخزينها معاً في السرّ ملدة ستة شهور؛ من أجل إتّهام كل التجهيزات الضرورية. صنعوا رؤوس دمّي تبدو كالأحياء، خدعت حرّاس الدوريات وجعلتهم يظنون أن الممساجين نائمون في أسرّتهم، شقّوا نفقاً عبر الأسمنت خلف زنازينهم، تسلّقوا عمود التهوية حتى القمة، تقبّوا السطح، حافظوا على البقاء ضمن مساحة حدّدوا أنها النقطة العمياء لأبراج المراقبة، تسلّقوا سورين من الأسلاك الشائكة بارتفاع 12 قدماً، ثم سبّحوا في الماء متبعدين مستخدمين وسائل للطفو مصنوعة يدوياً.

أدى نجاح موريis في هذا الهروب الفذ المستحيل من الـkartsaz -والذي أطلق عليه أعظم هروب في أمريكا- إلى تميّزه عن الناس العاديين. ميّزه أمر آخر أيضاً -على صلة وثيقة- إذ كان له معامل ذكاء⁽¹⁾ 133؛ ما يعني أن ذكاءه المقايس أعلى من ذكاء 98% من عامة الناس. تضعه هذه النتيجة في نطاق تصنيف "الموهبة"، أو ما أفضّل أن أطلق عليه الذكاء المفرط أو الألمعية العقلية. يحمل سلوكه بالتأكيد كلّ سمات الذكاء المرتفع، مثل السعي إلى اكتساب معارف ومهارات جديدة، والإرادة، والدأب، والتكييف الإبداعي للموارد. يصنع الذكاء المرتفع بسهولة قصّة تخلب الألباب: نبهر بالذكاء لأنّه يتصل بين عامة الناس بأعظم الإنجازات البشرية- كما يرتبط علمياً بها. ألبرت أينشتاين، ماري كوري، ليوناردو دا فنشي، لودفيج فان بيتهوفن: عبقريات مثل هذه، نعجب بها ونستلهنها.

أثبتت الأبحاث التي أجريت على مدار ما يزيد عن 100 عام أن الذكاء هو المتغير الذي يحظى بأقوى تأثير على العدد الأكبر من

(1) Esslinger & Widner (2017)

الآلات الحياتية. والتي تتضمن الصحة العقلية والجسدية ومتوسط العمر المتوقع والإنجاز الدراسي والدخل والأداء في العمل والسلوك الإجرامي والخراف، بل والموت نتيجة حادث سيارة⁽¹⁾. بالنظر إلى ذلك، فهو سمة أساسية ومؤثرة، ومن المتوقع أن يكون شيئاً نعترف علّاً به ونتحدث عنه. أما وأن الأمور لا تجري على هذا المنوال، فذلك يعكس تارينا المعقد مع الذكاء وعلاقتنا المعقدة به، على المستوى الجماعي كمجتمع وعلى المستوى الشخصي كذلك.

خوفنا من الذكاء

قالت زبونتي إيدا إنها أدركت أنها تتجنب الذكاء بسبب خوفها منه. لماذا قد يخشى أحدهم من الذكاء؟ في المقابلات البحثية التي أجريتها مع أشخاص، معامل ذكائهم يقع ضمن أعلى 2% من الناس، مرّ الكثير منهم بمحاذيف، وصفهم فيها الآخرون بأنهم "أذكياء ذكاءً مُرعباً". يشعر أغلب الناس بالسكونية عندما يكونون في "منطقة الراحة" comfort zone وهي حالة نفسية، يشعر فيها الشخص بالألفة مع ما حوله ويتصور نفسه مُسيطرًا على ما قد يحدث، وبالتالي يشعر بالأمان ويختبر مستويات منخفضة من القلق والتوتر. يبدو أن تصوّر أن أحدهم ذكي جدًا يخلق توقّعاً بأنه قد يقول أو يفعل شيئاً خارج النطاق المألوف لما يتوقّعه ويفهمه الواحد منا، وهو ما قد يتسبب في مفاجأته وما قد يصاحب ذلك من تداعيات سيئة. إن أحد مرادفات أن تكون ذكياً، أن تكون "حادة": يمكن للشيء الحاد أن يجرح. عندما ندرك أن شخصاً آخر يمتلك معرفة أو مهارة أو حدساً أو قوة في التحليل تفوق ما لدينا، نستقبله بوصفه تهديداً. دعنا

(1) Hunt (2011); Ritchie (2015); Warne et al. (2018)

نعتبر للحظة أنك تتذكر أنك مررت بهذا الأمر بنفسك، أو تخيلته: ما طبيعة التهديد الذي ينطوي عليه الأمر؟

إن أحد التهديدات التي ينطوي عليها الأمر تهديد شعورك بالكفاءة. عندما تلاحظ أن لأحدهم كفاءة أكبر، قد تشعر بأنك لست مُعدّاً -مقارنة به- للسيطرة على محيطك كما كنت تظن. قد يجعلك ذلك تشعر في داخلك بأنك أقل كفاءة؛ وبالتالي أكثر عرضةً للتهديد في محيطك. لا يبدو هذا جيداً؛ وبالتالي لن ترحب به. أمّا التهديد الثاني، فلو استخدم أحدهم كفاءاته ليظهر شيئاً لا تعرفه أو تتذكرة أو ليبين أن ثمة طريقة أفضل من تلك التي تقوم بها لإنجاز أمر ما، قد تشعر أنك مكشوف إذ تفتقر للمهارة ويتملّك منك الحرج. قد يجعلك هذا تشعر أن ذلك الشخص (وأي شاهد للواقعة) يحكم عليك بأنك غير مؤهّل، وكأن ذلك الشخص أفضل منك، أو أنك أسوأ منه. ومرة أخرى، لا يبدو هذا جيداً. قد يكون لهذا أيضاً تأثير دائم، يغيّر مكانتك في عيون الآخرين أو في عينيك، لا عن طريق وضعك في مكانة أدنى من الشخص الأكفاء، ولكن عن طريق الحطّ من مكانتك، مقارنةً بمكانة التي حُزّتها في السابق.

ويتمثل تهديد ثالث في أن ملاحظة كفاءة شخص آخر، يجعلك تدرك أنه إذا تصاعدت وتيرة صراع أو منافسة بينكما، فسوف تكون أنت الخاسر على الأرجح. تصاعد احتمالية الخسارة أمام خصم أذكي إلى درجة ملحمية في القصص الرئيسية في الخيال والتاريخ، تلك القصص التي تتضمن معركة إيجارية للخير ضد الشر، ويحظى الجانبان المتصارعان فيها دائمًا بذكاء مرتفع. على سبيل المثال، الذكاء الأسطوري للمحققخيالي شيرلوك هولمز، والذي يُمكّنه من التفوق على كل من يقابلها تقريرًا في القضايا العديدة التي حلّها. إلا أن الشخص الوحيد الذي يماثله بشكل مُبهر من حيث الذكاء عَدُوهُ اللدود مورياري. في قصة خيالية أخرى محبوبة للغاية، يقاتل الساحر

صغير السن هاري بوتر من أجل حياته مستخدماً الاستدلال العقلي الفائق (مستعيناً بأصدقائه وبعض السحر) لكي يفهم الهوركتوكسات -وسيلة فولدمورت المبتكرة الشيطانية لتأمينه ضد الموت- ويحدد أماكنها ويدمرها. في القصة الملحمية السينمائية (حرب النجوم)، يمكن للوك سكاي ووكر وفرسان الجيادي الوصول إلى "القوة"، والسيطرة عليها من أجل الخير. إلا أن دارت فيدر والسيث يمكنهم الوصول إليها كذلك، ويستغلونها لأغراض خبيثة. تتمثل أحد الأمثلة من التاريخ في الحرب العالمية الثانية، والتي شهدت اجتماع أمم كثيرة معًا من أجل حشد ذكاء يمكنه الإطاحة بعقرية هتلر وحلفائه الخبيثة. بل في الدين كذلك، تواجه المعرفة الكلية والقدرة الكلية للرب تحديًّا مُعقدًا أمام لوسيفر [الشيطان] صاحب القوة المشابهة، لكنها قوة شريرة. تنطوي شخصيات مثل فولدمورت ودارث فيدر وهتلر والشيطان على الذكاء الشرير الذي نخشاه.

يعني هذا كله أننا عندما نُعرض عن الذكاء، فإننا نسعى إلى تجنب الشعور بالسوء حيال أنفسنا، أو نسعى إلى اجتناب الخسارة أمام خصم أو عدوًّا محتمل. من الواضح أن ثمة أسبابًا قوية لخشية الذكاء، مع الأخذ في الاعتبار التهديدات التي قد يطرحها وتتصل بالكفاءة والمكانة والمنافسة، بل والبقاء. مع ذلك، فيما أوضحتناه إلى الآن على صلةٍ بالكيفية التي قد تتأثر بها عندما نواجه ذكاءً مثيراً للإعجاب في الآخرين. كيف نستجيب عندما نواجه في الآخرين ما يبدو نقصاً في الذكاء.

الاستجابة إلى التنوع في الذكاء ونسبته

إن المبدأ الأول الذي علينا أن نتذكره عند تقدير مستويات الذكاء هو أن الذكاء نسبي. نتوقع تلقائياً أن الآخرين يتصرفون وفق مستوى إدراكي مشابه لمستوانا، إلى أن نتعلم أهمية تكيف توقعاتنا. يتمثل أحد الأمثلة على ذلك في أن أصحاب معامل الذكاء المرتفع الذين أجري معهم اللقاءات في بحثي يخلطون عادة بين القدرة والدافع. يعني هذا أنهم يرون فشل الشخص في تحقيق شيء يستطيعون تحقيقه، راجعاً إلى أن الشخص كسول (بلا دافع)، لا يدركون أن ذلك الشخص -على العكس منهم- لا يمتلك القدرة على تحقيق ذلك الشيء بالطريقة نفسها.

نتألم كذلك مع المستوى العام للذكاء الذي اعتدنا التعامل معه من حولنا؛ إذ من الشائع أن الطالب الذي يتفوق على الآخرين جميعاً في مدرسة صغيرة، بها طلاب ذوو قدرات مختلفة (ظاهرة "السمكة الكبيرة في بركة صغيرة") يُعامل بوصفه ذا قدرة عقلية مرتفعة، ويتعامل على هذا الأساس. إذا انتقل هذا الطالب بعدئذ إلى جامعة كبيرة انتقائية، حيث يحيط به للمرة الأولى طلاب آخرون ذوو قدرات مكافئة له أو أعلى منه، لا يعود الأفضل أكاديمياً، وهو ما يُطلق في الغالب أزمة ثقة وهوية.

ما نفترض أنه سلوك ذكي قد يختلف كذلك بحسب الثقافة. تربط أغلب البلاد حول العالم الذكاء بالأداء الإدراكي القوي، كما يتجلّى ذلك على سبيل المثال في أداء الشخص في حل المشكلات. مع ذلك، تتأسس التصورات حول الذكاء بدرجة ما على الكفاءة في أداء الأنشطة التي يقدّرها المجتمع ثقافياً. نجد اختلافات مدهشة كذلك فيما يُجزم بأنه سلوك ذكي في مختلف البلدان. على سبيل المثال، تعد سرعة البديهة أحد الأشياء التي تعتبر علامـة على الذكاء في الولايات المتحدة

الأمريكية⁽¹⁾، وهو أمر يتعلّق تحديداً بالأداء الإدراكي. أما في مالي وكنينا فمن الواضح عند التركيز على السلوك الاجتماعي أن الإنصات إلى كل جوانب الموضوع يُعدُّ علامة على الذكاء⁽²⁾. يُعدُّ التواضع في الهند علامة على الذكاء⁽³⁾ وعمل الخير والقيام بما هو صواب في الصين⁽⁴⁾. قد تشير هذه الاختلافات إلى ما إذا كان يُنظر إلى الذكاء باعتباره إدراكيّاً في الأساس (الأمر المعتاد في الثقافات الفردانية الغربية) أم باعتباره شيئاً اجتماعيّاً في الأساس (الأمر المعتاد في الثقافات الجمعية الشرقية).

قد نفشل كذلك في التعرّف على سلوك ذكي إذا لم نستطع سَبْر غوره. على مَرِّ التاريخ، نجد حالات متكررة لمفكرين رواد، تجاهلوهم وشوّهوهم بسبب عملٍ لم يصبح مفهوماً ومُقدّراً إلا بعد وفاتهم. أحد الأمثلة على ذلك، الفلكي الإيطالي والفيزيائي والمهندس جاليليو جاليلي الذي أدين بالهرطقة ووُضع في حبس منزلي لبقية حياته بسبب تأييده لمركزية الشمس (التَّصُورُ -المقبول عالَمِيًّا الآن- والذاهب إلى أن الأرض تدور حول الشمس)⁽⁵⁾.

قد نفشل كذلك في إدراك أن الذكاء الحقيقي لشخص تحبّبه أمور أخرى. على سبيل المثال، لا علاقة للأداء الضعيف في المدرسة لإيدا زبونتي بمستوى ذكائها. عندما تعافت من صدمة طفولتها لاحقاً وعاشت في ظروف مغايرة، أظهرت قُدرةً على الأداء العقلي المتقدم، وكانت قادرة على الاستمتاع بالإنجازات المرتبطة به. إذا استخدمت الدلالات التي ذكرتها سابقاً لتقييم ذكاء شخص، والمتمثلة في الحفاظ على عيون محدقة خلال المحادثات، فسوف تخطئ في حكمك إذا

(1) Sternberg (1985a)

(2) Putnam & Killbride (1980)

(3) Baral & Das (2004)

(4) Yang & Sternberg (1997)

(5) Wootton (2010)

كان شريكك في المحادثة متواحد. يجد الأشخاص المتواحدون أنه من الصعب جدًا الإبقاء على اتصال بصري، لكنهم قد يكونون مفرطين الذكاء؛ وجدنا أن معدلات التوحد مرتفعة بين الأشخاص الذين يتذلون معامل ذكاء مرتفع جدًا⁽¹⁾. يجدر بنا أن نذكر احتمال وجود أسباب أخرى عاملة أكثر مما نظن في البداية. قد نرى عجوزاً مهذباً يقف في طابور أمام موظف خزينة في سوبر ماركت، ويبدو أنه يفتقر إلى المرونة الإدراكية التي تكفل له تعلم التكنولوجيا الحديثة الازمة لكي يسجل مشترواته بنفسه، في حين أن ما يحفز سلوكه فعلياً الوحدة ورغبته في لحظات قليلة من الانتباه إليه والحديث الحميمي مع موظف الخزينة، في أثناء مسحه لمشترواته ضوئيًا.

أوجه الأنظار لهذه الأمور لكي أوصي بالحرص عند الحكم على مستوى ذكاء الآخرين. ولكن بعد أن قلت كل هذا، نجد موقفاً، يصير من الواضح فيها أن الشخص يعاني من قصور في المستوى المعتاد المتوقع للذكاء البشري العام. يضع معامل ذكاء قدره 70 أو أقل الشخص ضمن حدود تصنيف صعوبات التعلم / الإعاقة العقلية، يحتاج مثل هذا الشخص إلى مساعدة دائمة في تسخير أنشطة حياته اليومية التي يعتبرها الأشخاص متواسطو الذكاء أموراً مفروغًا منها. يرتبط معامل الذكاء المنخفض بسلوكيات يصعب التعامل معها وبالتسرب الاجتماعي والبطالة والفقر والإصابات المتكررة ومعدلات الطلاق المرتفعة ومعدلات الزواج المنخفضة ومعدلات الولادات غير الشرعية المرتفعة والاعتماد على الإعانات والانحراف أقل القليل في أمور المواطنة (الاهتمام أقل القليل بالأمور السياسية والتصويت أقل القليل)، وارتفاع مخاطر ممارسة السلوكيات الإجرامية⁽²⁾.

(1) Karpinski et al. (2018)

(2) Herrnstein & Murray (1994)

إذا أخذنا مبدأ التوافق في الذكاء الذي أوضחנו له سابقاً في الاعتبار، عندما يحاول شخصان لديهما فجوة واسعة بينهما في القدرات العقلية الاتصال مع أحدهما الآخر، ينشأ شعور بالصعوبة والإحباط على الجانبيين. من السهل أن يحظى كلّ منهما من شأن الآخر، ويلومه على عدم رضاه عن التجربة.رأينا للتو أن تصور امتلاك شخص آخر لذكاء أعلى كثيراً مما قد يتسبّب لنا في شعور بعدم الارتياح، وقد استكشفنا الطرق المختلفة التي قد يكون بها هذا مصدر تهديد. قد يبعث تصورنا امتلاك شخص آخر لذكاء أقلّ كثيراً باضطراب كذلك، يُخرجك هذا مجدداً من منطقة الراحة الخاصة بك، ولكن لأسباب مختلفة.

إذا لم يكن التفاوت واضحًا للغاية، قد يجعلك هذا تشعر بشعور أفضل تجاه نفسك، وأنك تمتلك قدرات أكبر في علاقتك بالشخص الآخر. ولكن عندما يكون التفاوت أكثر حدةً، فقد لا ترحب بمواجهة أنه من الممكن للناس أن يعانون من قصور واضح في مستوى أدائهم الإدراكي، الذي قد نتوقعه في المعتماد من أحدنا الآخر. قد يجعلنا هذا لا نعرف كيف نتعامل مع مثل هذا الشخص، أو يجعلنا نشعر بالحرج بسبب أنه ينتهك السلوكيات الاجتماعية المقبولة. قد نشعر بالأسى تجاه مثل هؤلاء الأشخاص. قد نشعر بأننا لا نمتلك الصبر اللازم للتتعامل معهم أو نشعر بالعزوف عنبذل الجهد الذي يتطلبه التعامل معهم. قد نخشى كذلك من مغبة الاضطلاع بمسؤولية تلبية احتياجاتهم. قد يجعلنا هذا نشعر بالسوء تجاه أنفسنا لأننا نستجيب بشكل سلبي نحو مثل هؤلاء الأشخاص. قد يهدى هذا أيضاً رغبتنا في أن تكون مُحصّنين؛ ما يجعلنا فرعين من احتمال أن نفقد مستوى ذكائنا الذي نعتمد عليه تلقائياً للمضي قُدماً في أنشطة حياتنا اليومية.

كيف يصل الناس إلى مستوى الذكاء الموجود لديهم؟ هل من الممكن زيادته أو التقليل منه، وإذا أمكن ذلك، فكيف يحدث؟ أذهب في هذا الكتاب إلى أنه من الممكن وضع إطار مفاهيمي للبحث عن

إجابات لهذه الأسئلة في ثلاثة عصور رئيسية. تأخذنا الفصول الثلاثة التالية إلى رحلة، نخطو فيها خطوةً بخطوة عبر هذه العصور الثلاثة، ونشارك على طول الطريق الإجابات الأساسية التي وجدناها إلى الآن عن مثل هذه الأسئلة.

2

إضفاء المثالية على الذكاء

نجد تسجيلات ملوك تضفي المثالية على الذكاء وتعتبره سمةً بشرية مرغوبة ومثيرة للإعجاب في المجتمع الغربي، ترجع إلى زمن بعيد قبل أن يبدأ اختصاص علم النفس في دراسة الذكاء علمياً. يبدو هذا واضحاً في الكتابات المبكرة للكتاب الإغريقي القدماء: وصفت القدرة على الحديث والفهم الجيد في أوديسة هوميروس في القرن السادس قبل الميلاد تقريرًا بأنها زينة من السماء، تجعل الشخص قائداً، يُنظر إليه باحترام أينما ذهب⁽¹⁾. حالياً، تعتبر مناهج البحث العلمي المنضبطة أن الذكاء عامل قابل للفصل عن بقية العوامل ومن الممكن اختبار تأثيره على المحصلات المختلفة بشكل موثوق. ولكن قبل رسوخ مثل هذه المناهج، ارتبط الذكاء المرتفع بنتائج إيجابية عديدة، وارتبط

(1) Sternberg (1990: 23)

الذكاء المنخفض بنتائج سلبية عديدة. تتمدد هذه النتائج من الفوز في الحروب (انتصر اليونانيون في النهاية بسبب مخطط أوديسيوس الحادق: حسان طروادة) وحتى المشاكل الاجتماعية المتمثلة في الفقر والجريمة (التي نلقي باللوم فيها على الذكاء المنخفض).

تنامي الاهتمام خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بالذكاء وتحوّل إلى مجال بحثي منفصل. في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، تطّورت نظرية وسادت، تقرّرُ بضرورة أن نظمح نظامياً إلى الذكاء المرتفع. يرسم هذا الفصل صعود إضفاء المثالية على الذكاء في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية - والتي أطلق عليها عصر إضفاء المثالية - وتأثير ذلك على السياسات والممارسات الاجتماعية. استمرت بعض هذه السياسات والممارسات في حالات عديدة بعد الحرب العالمية الثانية، وإذا أشرت إليها باعتبارها أمثلة على عصر إضفاء المثالية، في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، فذلك يرجع إلى أنها نشأت خلال تلك الفترة، إذ ساد في أثنائها إضفاء المثالية على الذكاء. نجد في مركز هذه النظرية منظوراً يرى الذكاء شيئاً يمكن تحديده موضوعياً، وابتكرت مناهج لقياس مستويات الذكاء البشري.

قياس الذكاء في عصر إضفاء المثالية

هل من الممكن قياس الذكاء فسيولوجياً؟ في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ظنَّ الطبيب الأمريكي والعالم الطبيعي صامويل چورچ مورتون أن ذلك ممكّن. بدأ بفرضية. افترض أن القدرات العقلية للشخص تتحدد نسبياً عن طريق حجم دماغه. من ثمَّ شرع في محاولة لقياس أحجام الأدمغة البشرية المختلفة. حصل على الجماجم الفارغة لأكثر من 700 جثة، وقام بقياس مقدار السعة الداخلية لكل واحدة منها، في البداية عن طريق تسجيل عدد البوصات المكعبية التي يستطيع أن

يملاً بها كُلَّ واحدة منها بالبذور، ولاحقاً بطلقات الرصاص⁽¹⁾. جعلته هذه المقارنات التي قام بها لِسْعَة الجمامجم أسوأً غُنْصِرِيًّا العِلم سيني السمعة.

قسَم الجمامجم إلى جماعات وفق تصوراته العنصرية، حَسَب متوسط القياسات لكل جماعة، ثم رَتَّب الجماعات ترتيباً تنازليًّا متدرجًا وفق سعة الجمامجم، معتقداً أن هذا يرافق ترتيب مستوى الذكاء تنازليًّا. كانت هذه بداية الربط المخزي بين العنصرية والتركيز على الاختلافات القائمة بين الجماعات. ينطوي التفكير في اختلاف الجماعات على تصنيف الناس بناء على الاختلافات المتصوَّرة في متغيرات على غرار النوع والعرق والإثنية. نتعرَّض لاحقاً (في الفصل الرابع) إلى هذا الموضوع وننقد منهجيات مورتون، بالإضافة إلى ما اعتبره زيفاً وسُميةً؟ التفكير في الاختلاف بين الجماعات في العموم. نعود كذلك في الفصل نفسه إلى مسألة قياس الذكاء فسيولوجياً.

ابتدع العالم الإنجليزي واسع الاطلّاع فرانسيس جالتون أسلوبًا بديلاً للقياس -القياسات النفسيَّة-. في عام 1851 بعد وفاة مورتون بوقت قصير. تسعى القياسات النفسيَّة إلى قياس الذكاء نفسيًّا، لا فسيولوجياً. نشأت هذه القياسات في البداية بُغيةً محاولة قياس الذكاء تحديداً. كانت أول اختبارات القياس النفسي للذكاء التي اكتسبت انتشاراً واسعاً هي التي صممها عالم النفس الفرنسي ألفريد بينيه وتعاونه تيودور سيمون في عام 1904 لقياس مستويات القدرات الذهنية لأطفال المدارس.

لا تقيس هذه الاختبارات صفاتٍ جسديةً، ولكنها تقيس أداء الشخص في إجابة الأسئلة التي تتطلَّب أنواعاً مختلفة من المجهود الذهني. تتضمَّن هذه الأسئلة معالجة للصور والرموز والكلمات

(1) Mitchell (2018)

والأعداد وتفسيراً لها. هنا قليل من الأمثلة. يتضمن اختبار التفكير المنطقي المجرد سلسلةً من الصور، وعليك أن تختار من بين مجموعة من الصور، الصورة التي تكمل السلسلة. يتحقق هذا عن طريق استنتاج القاعدة التي تحكم التسلسل. يُطلق على هذا في الغالب "مصفوفة التفكير المنطقي" reasoning matrix. يتضمن نوع آخر من المجهود الذهني تذكر الأشياء. اختبار "مدى الأرقام" Digit span اختبار للذاكرة، وفيه تُقرأ قائمة من الأعداد متزايدة التعقيد، ويُطلب منك استعادة ما تقدر عليه من هذه الأعداد من الذاكرة. تُختبر القدرات المكانية Spatial ability عن طريق تقديم صور ثلاثة الأبعاد، يُطلب منك تخيل إدارتها 180 درجة. تحتاج إلى أن تختار في كل مرة من بين مجموعة من الاختيارات كيف تبدو نتيجة إدارة الصورة. تبني اختبارات بينيه الأصلية على حصر عدد الأسئلة مختلفة الأنواع التي يستطيع الشخص أن يجيب عنها بشكل صحيح، ودرجة صعوبتها، وسرعة الإجابة، وما تزال هذه الأمور أساساً اختبارات الذكاء إلى الآن.

من المعتمد أن يُطلق حالياً على اختبارات الذكاء: اختبارات مُعامل الذكاء IQ tests: كان البروفيسور الأمريكي لويس تيرمان أولَ من استخدم الاختصار IQ لمصطلح معامل الذكاء Intelligence Quotient، الذي صَّكه عالم النفس الألماني فيليام ستيرن. عمل تيرمان في جامعة ستانفورد، وهو كذلك من ترجم اختبارات بينيه إلى الإنجليزية، ومقاييس ذكاء ستانفورد- بينيه، المستعمل إلى اليوم، إذ يُحدَّد باستمرار. عمل روبرت يركس في جامعة هارفارد، وهو عالم نفس أمريكي آخر، أول من صمم اختبارات ذكاء جماعية، لا فردية. استُخدِم اختبار الجيش ألفا Army Alpha الخاص به في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى من أجل توزيع المتطوعين العسكريين على الوظائف المناسبة لهم.

اختلفت معاييره لتحديد نتائج اختباراته عن الطريقة التي تحدّد بها نتائج اختبارات الذكاء اليوم. انتبه إلى أن الأطفال يصبحون أقدر على القيام بمهام متزايدة التعقيد كلما كبروا في العمر، صنفَتْ أسئلة اختباره بحسب ما يستطيعه الأطفال في كل عمر. حددَ نتيجة الاختبارات بعد ذلك عن طريق قسمة العمر العقلي على العمر الزمني والضرب في 100. وهكذا، إذا استطاع طفل عمره 6 سنوات إنجاز مهام من المتوقع أن ينجزها طفل عمره 9 سنوات، عندئذ نقسم 9 على 6 ونضرب في 100 لنحصل على نتيجة 150. وبالعكس، إذا لم يستطع الطفل النجاح في مهام أكبر من تلك التي يستطيع أن ينجزها عادة طفل في الثالثة من عمره، فسوف تكون نتيجته 50. أمّا الطفل الذي يؤدي بشكل طبيعي -الطفل في السادسة من عمره الذي ينفذ مهاماً في نطاق المهام التي ينجح فيها عادة طفل في السادسة من عمره- فيحرز دائمًا 100، عن طريق هذه المعايير. يعطي نظام التقييم هذا انطباعاً واضحًا عمّا إذا كان أداء الطفل الإدراكي متواضعاً أم مرتفعاً أم منخفضاً. مع ذلك، يتأسس هذا النظام على التطور العمري النموذجي للأطفال؛ لذلك لا يمكن تطبيقه على اليافعين. ولا يمكن الخلط بينه وبين الوسيلة الإحصائية المعاصرة لتسجيل نتائج اختبارات معامل الذكاء، والتي سنوضحها في الفقرة التالية. سوف أحافظ على الإيجاز؛ حتى لا تكون القراءة مضجرة، لكن من اللازم شرح تلك الوسيلة من أجل فهم بعض المفاهيم والمصطلحات، التي سوف تظهر في الصفحات القادمة.

أوْكِدَ مرة أخرى على نسبة الذكاء، التي سلّطنا الضوء عليها في الفصل السابق، إن درجات معامل الذكاء مقياس نسبي تماماً للذكاء. تُظْهِرُ كيف يؤدي شخص تعرّض لاختبار معين لمعامل الذكاء بالنسبة إلى الآخرين الذين تعرّضوا للاختبار نفسه في الظروف نفسها (لذلك يُطْلَقُ عليه اختبار معياري). تُجرى الحسابات على النحو التالي: نجعل

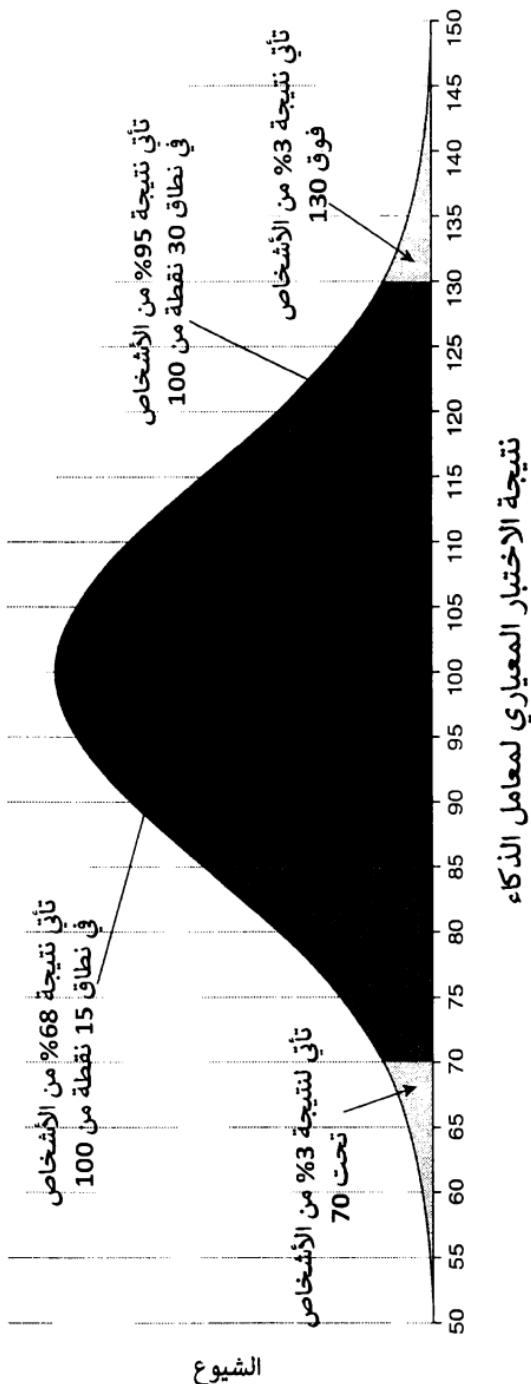
أكثر الدرجات التي نحصل عليها شيوعاً عند 100، ونجعل الانحراف المعياري (مقدار التّنّوّع في النتائج بداخل مجموعة من الناس) يساوي 15، تشكّل درجات معامل الذكاء لأي مجموعة من الناس عند تمثيلها بيانياً ما نطلق عليه منحنى التوزيع الطبيعي؛ يُطلق عليه كذلك منحنى الجرس لأن الرسم البياني يتّخذ شكل جرس مقلوب. يُمكّن هذا الرسم البياني الواحد من رؤية شيوخ النتائج بين الناس. نستطيع أيضاً التعبير عن ذلك باستخدام المئين percentile: ويعني مئين نتيجة أحد الأشخاص النسبة المئوية للناس الذين سجّل هذا الشخص أعلى منهم. على سبيل المثال، نجد أن نتيجة معامل الذكاء 115 تُعادِل انحرافاً معيارياً واحداً فوق المعيار norm، وتقع في المئين الرابع والثمانين.

عند قياس صفات بشرية أخرى مثل الطول والوزن، تشكّل البيانات توزيعاً طبيعياً أيضاً. مع ذلك، تنتظم هذه البيانات على مقياس النسبة ratio scale، وتعني به مقياساً يبدأ عند الصفر ويزيد تدريجياً بوحدات قياس معيارية مُتفق عليها عالمياً. على سبيل المثال، يُقاس الطول بوحدات السنتيمتر أو المتر أو البوصة أو القدم المعيارية المتفق عليها عالمياً. لا تشبه نقاط معامل الذكاء هذا النوع من القياس: لا يوجد حالياً مقياس النسبة للذكاء البشري.

مثلاًما تقوم اختبارات مورتون الفسيولوجية للذكاء على افتراضات معينة، تحمل اختبارات القياسات النفسية افتراضات معينة. تفترض أن الأداء في اختبار لمعامل الذكاء يدلّ بدقةٍ على مستوى ذكاء الشخص. (بما أن الذكاء ليس ظاهرة من الممكن رصدها مباشرة، يُستدلّ عليها دائمًا من سلوك الشخص). تفترض اختبارات الذكاء أن أداء الشخص في ذلك الاختبار المنفصل الواحد في تلك اللحظة في الزمن يقول شيئاً جديراً بالانتباه وثابتاً عن الأداء العقلي العام لذلك الشخص في سياقات أخرى وأوقات أخرى.

تفترض اختبارات الذكاء أيضًا أن المشاركين في الاختبار يحاولون بأفضل ما يستطيعون، لكنهم ربما لا يفعلون ذلك لو لم يجدوا الحافز أو لو شعروا بتشتت. كما تفترض الاختبارات أيضًا أن المشارك لا يكتب شيء، وربما لا يكون هذا صحيحاً ملحوظاً آخر: على سبيل المثال، عندما يشارك شخص يعاني من عُسر القراءة dyslexia أو عُسر الكتابة dysgraphia في اختبار مكتوب لتحديد معامل الذكاء، فإنه يتضرر، وتُحجب قدراته الإدراكية. لدى عميل ذكي للغاية أدّى بشكل سيئ في اختبار معامل الذكاء وهو طفل لأن أحدًا لم ينتبه إلى أنه يحتاج إلى نظارة: لم يستطع ببساطة أن يرى محتوى الاختبار جيّداً. إن موضوع قياس الذكاء معقد ويمكننا أن نتحدث فيه عن تفاصيل أكثر كثيراً. نستعرض المزيد من النقاط في الفصلين الثالث والرابع، تعكس كذلك كيف تطورت الاختبارات على مرّ الزمن.

شكل 2، 1: نقطة مرجعية مفيدة: منحى الجرس للذكاء البشري
نظيرية بارزة عن الذكاء نشأت في عصر إضفاء المثالية



طرح تشارلز سبيرمان عام 1904 أقدم النظريات الحديثة عن الذكاء، ما زالت تلك النظرية مستخدمة وبارة إلى اليوم. ابتكر سبيرمان الأسلوب الإحصائي لتحليل المعاملات factor analysis من أجل تحليل بنية القدرات البشرية⁽¹⁾، وما زال ذلك الأسلوب مُستخدمًا وبارزًا إلى اليوم كذلك. أوضح سبيرمان بواسطة هذه الطريقة أن الناس عندما يخوضون اختبارات مختلفة للأداء الإدراكي، تأتي نتائجهم في كل الاختبارات متشابهة مع بعضها البعض، أو مترابطة إيجابيًّا. اصطلاح على تسمية هذا "متشعب إيجابي" positive manifold⁽²⁾.

طرح من هذه الملاحظات أن الذكاء يتكون من عاملين. الأول قدرة محورية مفردة أو قوة رأى أنها تقف وراء كل القدرات الإدراكية. أطلق عليه "g"; ويرمز إلى العامل العام general factor للذكاء. أطلق على الثاني "العوامل-s" s-factors؛ وترمز إلى نسق مهارات فرعية مثل المهارات الكلامية أو المهارات الرياضية. قد يكون شخص أقوى في مهارة واحدة محددة من مهارة أخرى، إلا أن كل مهاراته تتأثر بقوة g الخاصة به.

التصدي للذكاء المنخفض للغاية

كلمة idiot [معنى أبله] جذور في اللاتينية وتعني شخصًا جاهلاً أو غير متعلم؛ وتعني في اليونانية: شخصًا غير مناسب للمشاركة في الحياة العامة، استُخدِمت في إنجلترا في العصور الوسطى؛ للإشارة إلى الأفراد الذين يفتقرن إلى فهم كيفية تدبير شؤونهم الخاصة⁽³⁾. سمح قانون اسمه "الامتياز الملكي" Prerogativa Regis للملك بالسيطرة على ممتلكات أولئك الذين حكمت عليهم هيئة محلفين من 12 رجلاً

(1) Mackintosh (2011)

(2) Cited in Ritchie (2015)

(3) Webb (2014)

بأنهم بُلَهاء⁽¹⁾. يسيطر الملك على الأرباح التي تُدْرِّها أراضيهم، لكنه يوْفِر لهم في المقابل "الضروريات"⁽²⁾. يلقي هذا بالضوء على التداعيات العملية للذكاء المنخفض: إذا لم يمتلك الشخص القدرة العقلية في سن الرُّشد والتي تمكّنه من أن يعتني مستقلاً بنفسه ويسدّ احتياجاته اليومية؛ فيجب أن يضطلع شخص آخر بهذه المهام. تنوّعَت محاولات التعامل مع هذا الأمر على مَرَّ العصور.

خلال عصور الإصلاح تحول التركيز العملي للعصور الوسطى على حماية الأفراد الذين يُنظر إليهم على أنهم بُلَهاء والعنابة بهم إلى تفسير ديني لحالتهم. طرح هذا التفسير إدانة أخلاقية: وَسَمُوا من يُطلق عليهم بُلَهاء بالخطأ الذين لا يمكنهم الخلاص لأنهم لا يملكون القدرة على التفكير المنطقي. في إنجلترا، اضطاعت العائلات، أو وُلاة الأمر المعينون، أو المشافي الكنسية- بالعنابة بمثل هؤلاء الأفراد، منذ عام 1575 بدأ ذلك الدور ينتقل إلى "دور الإصلاح" المعدّة للمجرمين، أطلق عليها إصلاحيات bridewells. منذ عام 1697 أُجِّيرَ من يُطلق عليهم بُلَهاء على العمل في المشاغل workhouses، وهي مؤسسات شُيِّدت لإيواء الفقراء.

نُظر إلى ذوي الإعاقة الذهنية على أنهم أدنى من البشر وعُوِّملوا عادة بقسوة: لم يميزوا بين حالتهم واحتياجاتهم وحالة واحتياجات الأفراد الآخرين الذين اعتُبروا منحرفين لأسباب أخرى. في القرن السابع عشر بدأ أولئك الذين عُرِفوا بأنهم بلهاء يصيرون مَبْحَثاً يثير فضول الدراسة العلمية. أدّى هذا في القرن الثامن عشر إلى تحويل نحو إضفاء الطابع الطبي: منذ عام 1774 تطلّب الأمر شهادة طبية لكي نشير إلى أن شخصاً ما أبله، ويحتاج إلى الدخول إلى مأوى للمجانين.

(1) Webb (2014)

(2) Neugebauer (1996)

في منتصف القرن التاسع عشر افتُتحت في لندن أول مؤسسة مخصصة للبلهاء: الملجأ الخيري للبلهاء - the Charity for the Asylum of Idiots. مثل هذا تحولًا آخر في التعامل: نظر إلى هذا الملجأ والأماكن الأخرى التي افتُتحت لاحقًا على أنها مؤسسات تعليمية، على الرغم من أن الالتحاق بها تطلب شهادة طبية. عندما أنشئ التعليم الأساسي الإلزامي العام في إنجلترا على المستوى القومي في عام 1880، أصبح من اللازم توجيه المزيد من الدعم للأطفال الذين لا يستطيعون التعامل مع المناهج التي تدرس في الفصول العادية. بحلول عام 1903 - العام الذي سبق طرح أول اختبارات الذكاء لبنيه - أنشئت أول مدرسة خاصة ببطئي التعليم في إنجلترا. أثير الأمر نفسه في بلاد كثيرة أخرى، ففي ذلك الوقت بدأ التعليم الإلزامي في أغلب بلاد أوروبا الغربية. مرر قانون في الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1911 يلزم بإنشاء فصل خاص عندما يوجد 10 طلاب أو أكثر يؤدون مستوى يقل بثلاث سنوات عن عمرهم الزمني⁽¹⁾.

مهما كانت المقارب المختلفة التي اتُخذَت في البلاد المختلفة - المقاربات العملية أو الأخلاقية أو التي ترَكَّز على العمل أو العلمية أو الطبية أو التي ترَكَّز على التعليم - ظلَّ الذكاء المنخفض جدًا واقعًا اجتماعيًّا، يتطلَّب استراتيجية للتعامل معه. تغيَّرت الإشارة إليه على مرِّ السنين؛ من تسميته بـ idiocy إلى دون السواء العقلي mental subnormality إلى إعاقة عقلية mental handicap إلى تأخير ذهني learning disability إلى إعاقة تعليمية mentally retarded إلى إعاقة عقلية intellectual disability⁽²⁾، وهو الاصطلاح الذي سُاستخدمه. بالطبع يتأثر

(1) Plucker & Esping (2014: 42)

(2) Eyeoyibo (2018)

أسلوب التعامل مع الإعاقة العقلية كثيراً بال موقف السائد نحوها. وقد تغير الموقف السائد كذلك على مرّ العصور.

التمييز ضد ذوي الذكاء الأدنى

فور أن ابتكرت اختبارات معامل الذكاء، خُصصت سريعاً لتمييز من يملك الذكاء ومن لا يملك، وبطريقة لا تستهدف الرصد المحايد، بل إصدار الأحكام. أبرز مورتون هذا الأمر في ترتيبه لأحجام الجماجم، إذ جعل البشر الذين أشار إلى أنهم يمتلكون الذكاء الأعلى أفضل ومتفوّجين على البشر الآخرين. مارس جالتون التمييز كذلك لصالح ذوي الذكاء الأعلى ضد ذوي الذكاء الأدنى، الذي أطلق عليه "الضعف العقلي" feeble-mindedness.

تضمن تصنيف بيئيه مستويات الذكاء كلمتين ذاتي أصل فرنسي: "مغفل" imbecile و "معتوه" moron، تشيران إلى مستويات الذكاء المنخفضة - سرعان ما شاع استخدامهما في اللغة الإنجليزية للتعبير عن الأذلاء، إذ يُقذف بهما أولئك الذين يبدو أنهم لا يفهمون ويسبّبون الإحباط وبطئون ويفتقرون إلى الجدارة، ويُظَنُّ أنهم أغبياء. على العكس من ذلك، تسمِّ اللغة الدارجة أولئك الذين يمتلكون أعلى درجات الذكاء الممكنة بأنهم "موهوبون" gifted. كان هذا الاصطلاح موجوداً بالفعل في القرن الخامس قبل الميلاد في "جمهورية" الفيلسوف الإغريقي القديم أفلاطون (الكتاب الخامس) Book 5⁽¹⁾. نظن أن التعبير مُستَقِّى من مفهوم أن القدرات المرتفعة "هبات هبات gifts من الأرباب"⁽²⁾.

خلال عصر إضفاء المثالية، تطورت الممارسات التي تجعل التمييز لصالح الذكاء الأعلى هو العُرف. على سبيل المثال، مورس إضفاء المثالية

(1) استُشهد به في Sternberg (1990: 23)

(2) Silverman (2013: 53)

بوقاحة في الغالب بطرق لا تولي اعتباراً للتأثير النفسي والاجتماعي والعاطفي على أولئك الذين يجري التمييز ضدهم أو على أولئك الذي يجري إضفاء المثالية عليهم.

وصفت البروفيسورة كارول دويك من جامعة ستانفورد كيف كانت معلمتها في المدرسة الابتدائية تضفي المثالية على الذكاء كالتالي: أجلسنا في أرجاء الحجرة مُرتبين وفق مستوى معامل الذكاء. سلّمت كل المسؤوليات المرغوبة من تنظيف ممسحة السبورة حتى حمل العلم في التجمعات على أساس معامل الذكاء. كتبت إلى جوار أسمائنا في سجلها درجات معامل الذكاء بأرقام سوداء كبيرة⁽¹⁾.

بحثت دويك منذ ذلك الوقت بشكل موسّع وكتبت عن الكيفية التي يؤثّر بها أسلوب التعامل مع الناس على تصوّرهم عن ذواتهم، بالإضافة إلى سلوكهم اللاحق نحو إظهار قدراتهم وممارستها.

وقدّمت الممارسات في المثال السابق في مدرسة ابتدائية في الولايات المتحدة الأمريكية. تقدم أشهر المدارس الثانوية في المملكة المتحدة أمثلةً أكثر إثارة للدهشة لممارسات تضفي المثالية على الذكاء بشكل صارخ. يطلق جميع طلاب مدرسة كلية إيتون الداخلية على 14 طالباً من الطلاب الجدد الملتحقين بالمدرسة اسم "طلاب الملك" king's scholars على اعتبار أنهم كانوا أصحاب الأداء الأفضل في امتحانٍ عامًّا مرهق يخوضه المئات. كان رئيس وزراء المملكة المتحدة بوريس جونسون أحد طلاب الملك، وكذلك الكاتب البريطاني هاري إيريس. يتذكّر إيريس كيف شعر طلاب الملك أنهم أرقى عقلياً من الـ 1200 ولد الآخرين؛ إذ فصلوا بوضوح تام عنهم، وجاءت إقامتهم في قسم منفصل في المركز العتيق للكلية، وارتدوا معاطف خاصة.

(1) Dweck (2000: 26)

في كل سنة دراسية في إيتون، يخوض كل الطلاب امتحانات شاملة، وإذا لم تنجح يمسك مدرّسك في الفصل بورقة إجابتك ويمزقها حرفياً إلى نصفين. يُطلق على هذا "تمزيق" rip، ويجب أن يوقع عليها المسؤول عن مبناك ومعلمٌ خاص. على الجانب الآخر، يُطلق على الأداء الجيد جداً "تجلًّ" show up، ويجب أن تُوقع الورقة كذلك. إلا أن لفتاً أكبر لانتباه العامة تجاه القدرات العقلية يحدث فيما أطلق عليه الطقس البربري⁽¹⁾ barbaric ritual، والذي يتضمن إذاعة نتائج الاختبارات التي يُطلق عليها "امتحانات" trials.

بدلاً من أن يجري الأمر في فصول منفردة، يحتشد كل طلاب السنة الدراسية - 250 طالبًا تقريباً - في قاعة كبيرة من أجل إذاعة نتائج الامتحanات. وهناك، يقرأ معلمٌ مهيب، يرتدي معطفاً أسود، بصوت مرتفع، مركزَ كُل طالب بالنسبة إلى الآخرين، وفق نتائج هذا الطالب. يبدأ باسم ذلك الذي جاء في أدنى مكان، وبعدئذ يقرأ بقية الأسماء كلها والمراكز بترتيب معكوس. يُنح الشّخص الذي يأتي أخيراً لقب "الفشل التام العام" GTF (General Total Failure). لم يلق أحد هم بالاً للإهانة التي تُسبّبها مثل تلك الطقوس لأولئك الذين يحلون في المراكز الدنيا، أو الغرور الذي تحفّزه في أولئك الذين يحلون في المراكز الأعلى، أو الانقسام الذي تخلقـه بين التلاميذ. أم لعل هذا ما أرادوه تحديداً: إلحاق العار بأصحاب الدرجات الدنيا، وتفخيم أصحاب الدرجات العليا، وترسيخ الانقسام المجتمعـي.

يمكننا أن نجد في سلسلة الخيال العلمي التلفزيونية "ستار تريك" صورةً للكيفية التي يمكن بها أن يصل إضفاء المثالية على الذكاء إلى أقصى حدود التّطـرف. إذ تُصوّر الشخصيات فيها على أنها تطورـت بحيث لم تعد تحتاج إلى أي شيء سوى أدمغة عاملة، أو صارت مجرّد

(1) Sykes (2008)

أدمنجة عاملة. تعتبر صيورة الشخصيات إلى ذكاء بلا جسد التصوير الأقصى لمفهوم أن لا شيء يهم سوى الوظائف الذهنية، التي أُعليت فوق كل شيء آخر.

الأبحاث التي تركز على كيفية زيادة الذكاء

لم تسعَ أبحاث الذكاء خلال عصر إضفاء المثالية إلى تحقيق رؤية ستار تريك في الواقع، لكنها بالتأكيد كانت مدفوعة بالتساؤل عن كيفية زيادة الذكاء. ساد تسليم بالعبء الذي يضعه الذكاء المنخفض للغاية على المجتمع، بالإضافة إلى تسليم بأن الإسهامات الإيجابية في المجتمع من خلال اكتساب المعرفة والابتكار والقيادة ارتبطت بجدارة الذكاء المرتفع. يقع خلف التساؤل عن كيفية زيادة الذكاء تساؤل عمّا يجعل الذكاء منخفضاً أو مرتفعاً.

تمثل أحد التفسيرات المبكرة (من القرن السادس عشر) للذكاء المنخفض للغاية في أسطورة تبديل الأطفال. تؤمن تلك الأسطورة بأن الشيطان سرق الطفل المثالي واستبدل به واحداً من ذريته⁽¹⁾. تتضمن الأسباب المعروفة حالياً مشكلات تحدث في أثناء الولادة، يُحرّم الدماغ من الأكسجين واعتلالات چينية مثل متلازمة البَلَه المغولي، أو متلازمة الكروموسوم إكس الهش، وأمراض مثل الالتهاب السحائي.

وفيما يتعلق بالذكاء المرتفع، طرح جالتون في القرن التاسع عشر أول دراسة تجريبية كبيرة عن العقريبة⁽²⁾. أوضح عن طريق تطبيق التحليل الإحصائي من خلال دراسة أجراها على 1000 رجل بارز من 300 عائلة أن عائلات معينة تُخرج عقريبات عديدة على مدار

(1) Webb (2014)

(2) Plucker & Esping (2014)

أجيال كثيرة، في حين لا تُخرج عائلات أخرى أي أفراد مميّزين. جزم جالتون في كتابه "العقارية الوراثية" (1869) Hereditary Genius⁽¹⁾ أن هذا يبرهن على أن الذكاء سمة تُورّث چينيًّا. كان أول من استخدم عبارة "الطبيعة في مقابل التنشئة" nature versus nurture، التي يشيع استخدامها حالياً في النقاشات الجدلية حول التأثيرات الجينية في مقابل التأثيرات البيئية على الترتيب.

تأثّر جالتون بالعمل الرائد لابن عمّه الشهير تشارلز داروين "أصل الأنواع"، الذي نُشر في عام 1895⁽²⁾. أوضح داروين كيف تتطور أنواع الحيوانات لكي تحسّن من تكييفها من أجل البقاء، عن طريق انتخاب صفاتها الجسمانية المفيدة للبقاء طبيعياً لكي تتکاثر. طبق جالتون ذلك على البشر، واعتبر أن البشر يزيدون من تكيفهم من أجل البقاء عن طريق زيادة ذكائهم. واعتبر أن الطريقة الأكثر فعالية لزيادة الذكاء في المجتمع تكمن في مساعدة الانتخاب الطبيعي عن طريق التدخل لتوجيهه ذوي الذكاء المرتفع للحصول على المزيد من الأطفال ذوين ذكاءً منخفضاً لامتناع عن الحصول على أطفال.

اليوجينيا، ذروة عصر إضفاء المثالية

أرى أن اليوجينيا هي ذروة حقبة حقبة إضفاء المثالية، وكانت قمتها في أثناء الحرب العالمية الثانية. تعتبر سياسات وممارسات ألمانيا النازية أشنع مثال لليوجينيا. تضمّنت إسباغ الهويّات على الجموع وإبادة الناس الذين اعتُبروا أدنى مرتبة بناء على الأداء العقلي والإثنية والإعاقة والتوجّه الجنسي.

(1) Galton (1869)

(2) Darwin (1859/2012)

بدأ كل شيء في عام 1883 حين صُكَّ جالتون مصطلح اليوجينيا عن طريق مزج الكلمتين اليونانيتين εὐ (تحسين) و γένος (النسل)⁽¹⁾. في بدايات القرن العشرين استُقبلت أفكار جالتون عن كيفية تحسين المجتمع عن طريق التنازل الانتخابي بتفاولٍ شديد، ومارستها دول كثيرة حول العالم -مصحوبة بأساليب منمقة، لم يدعمها جالتون نفسه- واستُحدثت سياسات اجتماعية يوچينية.

شرعَت السياسات اليوچينية طرقاً لتشجيع الإنجاب في الجماعات المستهدفة، اصطُلح على تسميتها اليوچينيات الإيجابية. على سبيل المثال، استحدثت الحكومة البريطانية تخفيضات ضريبية للأزواج المتعلمين جيداً لكي يحصلوا على المزيد من الأطفال⁽²⁾. تضمنَت اليوچينيات السلبية عزل الأفراد غير المرغوب فيهم ومنعهم من التكاثر. على سبيل المثال، كان عالم النفس الأمريكي هنري هيربرت جوداد ذرائعاً في تطويره لضوابط للهجرة، قمنع دخول الأفراد الذين اعتُبروا ضعاف العقول إلى الولايات المتحدة الأمريكية: أجريت اختبارات الذكاء في نقطة تفتيش جزيرة إليس في نيويورك، واستُخدمت لإبعاد الآلاف على مدار 40 سنة⁽³⁾. انتشر التعقيم الإجباري في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والمكسيك والكثير من دول غرب وشرق وسط أوروبا لأولئك الذين حُكم عليهم بأنهم في مستوى عقلي مت殿下. مثلَت اليوچينيا ذروة الاعتقاد في أن الطبيعة تتغلب على التنشئة فيما يتعلق بالذكاء.

على الرغم من أن عمل جالتون رُكِّز على الذكاء، سرعان ما شملت اليوچينيا سماتٍ أخرى، قرروا أنها غير مرغوبة. ساءت سمعة جنوب أفريقيا بسبب قوانينها القائمة على العنصرية، نُشر أولها في عام 1910.

(1) Plucker & Esping (2014: 27)

(2) Mackintosh (2011)

(3) Plucker & Esping (2014)

توسّعت تلك القوانين لاحقًا لتتحول إلى نظام الأبارتاي德 re-apartheid regime بأكمله. أدعى الأبارتاي德 علناً أن بعض الأعراق أقل ذكاءً من الأعراق الأخرى؛ ولذلك هي أدنى مكانة، ووجه الناس إلى السُّكنى في مناطق منفصلة، واستعمال وسائل رفاهية عامة منفصلة، وأنظمة تعليمية منفصلة، وهو فصل قائم بالكامل على الملامح الفسيولوجية مثل لون الجلد. مُنْعِزِّزُ الزواج بين الأعراق ذات التصنيف المختلف، بل مُنْعِزِّزُ العلاقات الجنسية فيما بينها. وفي حالة ألمانيا النازية لم يقتصر الأمر بالتأكيد على العزل الإجباري أو التعقيم الإجباري لأولئك الذين ميَّزوا ضدهم، بل امتدَّ إلى الإبادة.

السيكولوجيا الكامنة خلف عصر إضفاء المثالية

مرحلة إضفاء المثالية جذورها في ثلات من أكثر عملياتنا السيكولوجية بدائية. ألا وهي صناعة المُثُل العليا التي نستلهما، وتقسيم الأشياء إلى جيدة في مقابل سيئة، والفصل العشائري بين جماعاتنا الداخلية in-groups (التي نقبل بها ونريد أن ننتمي إليها) وبين الجماعات الخارجية out-groups (تلك التي نرفضها، بل ندمرها).

ونحنأطفال نتعرّض جميعاً بصورة متكررة لرؤى آبائنا عمّا يعتقدون أنه السلوك المثالي والأفكار المثلية والعادات المثالية والمساعي المثالية؛ وذلك عبر طرق كثيرة خفية وواضحة أيضًا. تمدُّنا هذه المُثُل العليا بإرشادات عمّا هو متوقّع منا، وما سيمدح، وما سنُعاقب عليه. ننشأ جميعاً وهم يخبروننا أن نكون بنتًا جيدة أو ولدًا جيدًا. تُكافأ عندما يُقال إننا كنا جيدين. عندما لا نذعن لهذه الإرشادات، يخبروننا أننا كنا سيئين، أو أننا سيئون، ونعياني من الرفض والتوبيخ. نميل إلى تبني هذه المُثُل التي علموها لنا، في البداية على الأقل، لأننا نتعلم

أننا عندما نفعل ذلك؛ نضمن تلقّي التعاطف والحماية والمؤن التي نحتاجها لبقائنا وصلاح أحوالنا.

تدرس نظرية التعلق attachment theory في توسيعٍ كيف تأثر بالعلاقات الوثيقة. والنظرية بنية معرفية، رائدتها جون بولبي⁽¹⁾ الذي أوضح بعد عقودٍ من البحث التجاري⁽²⁾ أن البشر مُبرمجون چينياً للبحث عن الأمان - "قاعدة آمنة" secure base - عن طريق بناء علاقات وثيقة ثابتة مع الآخرين، تبدأ بأولئك الذين نعتمد عليهم للعناية بنا في أثناء الطفولة. يخلق استيعاب مُثل الآخرين المهمين لنا أمان معرفة كيفية كسب استحسانهم، لكنه يخلق كذلك خوفاً من عواقب الفشل في تحقيق المتوقع منا. في النهاية نشارك في تحديد مُثلنا الخاصة؛ إذ يضفي النضال من أجل شيء على حيواتنا شكلاً ومعنى.

بالإضافة إلى مرورنا بخبرات عن كيفية تقسيم الآخرين (الآباء والمعلمين والأقران) لسلوكياتنا إلى جيدة و سيئة، نُقسّم بدورنا مشاعرنا تجاه أنفسنا والآخرين وتقييماتنا لسلوكياتنا وسلوكيات الآخرين إلى جيدة و سيئة. يرتبط الجيد بالأمان والسيئ بالخوف من العواقب. وصف مفكرو التحليل النفسي - وبخاصة ميلاني كلاين⁽³⁾ - كيف نحاول الحفاظ على شعورنا بالأمان وصدّ القلق عن طريق محاولتنا الدائمة أن نرى أننا جيدون، وأن الذين نحتاج إلى أن نشملهم معنا جيدون كذلك. نفعل هذا عن طريق فصل أي شيء نتصور أنه سيئ - ونخافه - عمما هو جيد، ومن ثم نتخلص منه.

تتوافق السلوكيات المرتبطة بالذكاء في العموم مع المُثل المدعومة: يجب إظهار القدرة على اكتساب المعرفة والتعلم من الخبرة

(1) العديد من المنشورات. أما أول كتبه ذات التأثير (1969) Bowlby

(2) على سبيل المثال، انظر (2008) Cassidy & Shaver

(3) انظر (1997) Gomez

والإجابة السليمة عن الأسئلة وحل المشكلات في العادة ردود فعل مستحسنة. عندما نُظْهِر مثل هذه السلوكيات ونحون أطفال يخبروننا أننا قمنا بعمل حسن، وهو ما يجعلنا نشعر بشعور جيد تجاه أنفسنا. يتسبّب قيامنا بالأمور بصورة خاطئة في شعورنا بالسوء تجاه أنفسنا. قد تتسبّب معاناتنا من ردود الفعل السلبية بسبب قيامنا بالأشياء بصورة خاطئة في شعورنا بالخوف من قيامنا بالأشياء على هذا النحو الخاطئ.

تتمثل واحدة من طرق حفاظك على شعورك بأنك في منطقة الأمان، وأنك جيد، في قدرتك على تعين ما يُعتبر سينًا خارجك، في الآخرين. لدينا جميعًا مخاوف بدائية من أن يحكموا علينا بأننا غير مؤهّلين، وأن يلفظونا. إذا استطعنا إبعاد تلك الصفات عنّا وإسقاطها على شخص آخر بدليل، يمكننا أن نشير إليه على أنه هو غير المؤهّل، وعندئذ يمكننا أن نشعر أننا مُبرئين وآمنين مقارنة به. قد يصير ذلك الشخص مَن يتعرّض للرفض بدلاً منا. هذا ما يفعله الأطفال عندما يشعرون بالتهديد ويقولون لست أنا، إنه هو. أنا الجيدة وهي السيئة.

هل تتذكر عندما كنت في المدرسة، وانخرطت في جماعة؟ هل يمكنك أن تفكّر في أمثلة للكيفية التي كنت تتصورون بها الأشخاص داخل الجماعة في مقابل الأشخاص خارجها وتعاملونهم بناء على ذلك؟ عندما نُكَوِّن مجموعة نتفق على أننا جميعًا في داخل تلك المجموعة جيدون، يجعل هذا كل أعضاء المجموعة يشعرون بالكثير من الأمان. ومن الممكن تأمين المزيد من هذا الأمان عن طريق إسقاط كل ما نتصور أنه سيء على المجموعات الأخرى. أوضحت نظرية الهوية الاجتماعية⁽¹⁾ social identity theory أن التصنيف المجرد

(1) Tajfel & Turner (1979)

لجماعة على أنها منفصلة ومختلفة عن الجماعة التي ننتهي إليها (الجماعة الداخلية) يقوم على التمييز ضد تلك الجماعة الأخرى واعتبارها جماعة خارجية. لا يقوم هذا على أساس تعظيم مكاسب الجماعة الداخلية، بل يقوم على أساس تعظيم الاختلافات في الجماعة الخارجية. بمعنى آخر: يقوم التمييز على أساس التأكيد على أن أولئك المنتسبين إلى الجماعة الخارجية مختلفون.

عندما ترتبط صفات مُعينة بشخص أو جماعة مُعينة، يؤدي هذا بسهولة إلى التمسك بصور أو تصورات سائدة عن هذا النمط من الأشخاص أو الجماعات، ولكنها صور وتصورات ثابتة ومبسطة للغاية؛ بمعنى آخر: يؤدي هذا إلى تكوين قوالب نمطية stereotypes. يخدم تنميّط جماعة واعتبار أنها الجماعة التي تضمُّ السينين هدفنا المتمثل في التخلُّص من الأشياء السيئة التي نريد إزالتها مناً ووضعها فيهم. مع ذلك، يتركنا هذا مع شعور بالخوف من أولئك الآخرين الذين نرى الآن أنهم سينيون تماماً. قامت قوانين الأبارتاياد في جنوب أفريقيا بالكامل على محاولة قمع الأعراق التي خافوا منها بشدة في ذلك الوقت وفي ذلك السياق الاجتماعي. وبالمثل، شاع الخوف من ذوي الذكاء المنخفض للغاية خلال عصر إضفاء المثالية: "إن تكاثر ضعاف العقول خطير مفرز جدًا، يهدّد العِرق". - هذا ما كتبه رجل الدولة ونستون تشرشل في مذكرة موجّهة إلى رئيس الوزراء في عام 1910م^(١). وهكذا يتضح أن البدء في توجيه النصح بالتخلُّص من الخطرين جدًا من أجل أماننا هو تطور سيكولوجي طبيعي.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) استشهد به في (2010) Brignell

كيف انتهى عصر إضفاء المثالية

أحدد نهاية عصر إضفاء المثالية بنهاية ممارسات وسياسات اليوچينيا الاستبدادية التي مورست على مستوى الجماعات السكانية. نُجِّمِع على أن اليوچينيا انتهت بختام الحرب العالمية الثانية في عام 1945⁽¹⁾ (تعتبر محاكمات نورنبيرج (محاكمة الأطباء الألمان بسبب جرائم الحرب) واتفاقية منع وعقاب جرائم الإبادة الجماعية التي تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بالإجماع في عام 1948 دلائل على هذا). مع ذلك، استغرق تراجع ممارسات وسياسات اليوچينيا وقتاً حتى يدخل حيّز التنفيذ. يستغرق أي تغيير اجتماعي كبير وقتاً كبيراً حتى يرسخ. على مدار العقود التالية، غيرت المؤسسات جميعها في أوروبا وأستراليا وبريطانيا وكندا وأمريكا أسماءها من ألقابٍ تتضمّن كلمتين "يوچينيا" و"صحة" hygiene (الصحة العقلية والصحة العرقية) إلى ألقاب تتعلّق في الغالب "تنظيم الأسرة" و"الجينات"⁽²⁾.

تكشف ممارسات هتلر النازية عن الشّطط الأقصى لفظائع اليوچينيا. أبىدت الملايين، لا لأسباب ترتبط بالذكاء فقط، ولكن بسبب عيوب أخرى تصوّروها كذلك، إلا أن عشرات آلاف الوفيات تُعزى مباشرة إلى أحكام مسبقة تتأسّس على مستويات الذكاء⁽³⁾. أدى ذلك إلى صدمة عالمية أدّت بميلاد حقبة جديدة، ردّة فعل إضفاء المثالية على الذكاء.

(1) Bashford & Levine (2010)

(2) انظر Bashford & Levine (2010)

(3) انظر متحف ذكرى الهولوكوست بالولايات المتحدة الأمريكية United States Holocaust Memorial Museum (n.d.)

3

الإنقاص من قيمة الذكاء

بعد كارثة الحرب العالمية الثانية، سعت المجتمعات التي آلمها ضميرها إلى الابتعاد بمسافة عن أي شكل من أشكال القيم الممجدة في التصورات الهتلرية أو العاملة في سياساته المثلثة. عنى هذا أن الاستجابة إلى نظرية إضفاء المثالية على الذكاء التي ميزَت حقبة ما قبل الحرب العالمية الثانية والتي عزَّزَت من الكثير من ممارسات اليوجينيا قد انعكست تماماً. نشأ الآن نقيض النظرية، والذي تضمن تشويهاً للذكاء أو إنقاضاً من قيمته. على الرغم من استمرار وجود أدلة على أن الذكاء سمة مطلوبة ومحل إعجاب في أثناء عصر الإنقاص من الذكاء، تزايد شجب هذا السلوك أكثر وأكثر ورُدع التعبير الصريح عنه. وتدربيجيًا صار تحول النموذج واضحًا وصار النموذج مميًّا عن النموذج الذي ساد في عصر إضفاء المثالية.

تمثّلت أخلاقيات عصر الإنقاصل من قيمة الذكاء في وجوب الرفع من مكانة أولئك المكافدين، وترك أولئك الذين يشعرون ذكاء ليشعروا بنوع من الخزي ولি�تواروا عن الأنظار. نُظر في شُكٌ متزايد إلى أبحاث الذكاء، وصار الابتعاد عنها آمن. بل نُظر إلى أن تدريس الذكاء أمرٌ شائئ للغاية، وتوقفت محاولات تدريسيه في جامعات كثيرة⁽¹⁾. شهر الرأي العام بأولئك الذين اعتبروا أحجام الرؤوس مقاييساً للذكاء أو أولئك الذين اعتقدوا أو نشروا أي بيانات تتصل بهذه الممارسة، هذا "القياس الخاطئ للإنسان". وهو عنوان كتاب تصدر المبيعات وفاز بجائزة، كتبه ستيفن جاي جولد⁽²⁾ (سنقول المزيد عنه لاحقاً)، أرى أنه رمز لعصر الإنقاصل من القيمة. تتفق أغلب عناوين هذا الفصل مع العناوين المستخدمة في الفصل السابق، وتتبع الترتيب نفسه، من أجل توثيق كيف تطّورت الموضوعات نفسها التي طرحت من حيث اتصالها بعصر إضفاء المثالية بشكل مختلف في عصر الإنقاصل من القيمة.

قياس الذكاء في عصر الإنقاصل من القيمة

رأينا كيف أُرسِيت اختبارات معامل الذكاء وصارت منهجاً لقياس الذكاء البشري في خلال عصر إضفاء المثالية. حلقت شهرتها في السماوات: باع اختبار الذكاء الوطني the National Intelligence Test المنشور في الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1919 أكثر من نصف مليون نسخة في عام⁽³⁾; لكي يُستعمل في المدارس والجامعات ومؤسسات الأعمال. على النقيض من ذلك، اكتسب استخدام - وسوء

(1) Woodley of Menie et al. (2018)

(2) Gould (1981)

(3) Mackintosh (2011: 17)

استخدام- اختبارات معامل الذكاء بحلول عصر الإنقاص من القيمة ارتباطاً سلبياً بالنخبوية والعنصرية، بحيث بدأ واضعو الاختبارات في إنكار أن اختباراتهم تُقيّم الذكاء. وتجنباً للخلاف ومن أجل زيادة المبيعات بدؤوا يسمونها اختبارات الكفاءة أو القدرة بدلاً من اختبارات الذكاء⁽¹⁾.

هوجِم قياس الذكاء بشكل واسع خلال عصر الإنقاص من القيمة. تضمنَت الانتقادات الموجهة إلى اختبارات قياس الذكاء أن ما تقيسه ضيق للغاية لكي يُقال إنها تعكس ذكاء شخص، وأن هذه الاختبارات منحازة ثقافياً -ليست عادلة ثقافياً-. ولذلك تظلم -على سبيل المثال- من يخوض الاختبار ولا يتشارك اللغة الأم مع واضعي الاختبار ومن الممكن أن تكون نتائج الاختبار غير دقيقة بسبب خطر التحيط. يشير خطر التحيط إلى أن الأفراد يؤدون بصورة أسوأ من قدرتهم على الأداء عندما يكونون أعضاء في جماعة مُنْهَى واعتبرت فاشلة⁽²⁾ (على أساس السن أو النوع أو العرق أو الحالة الاجتماعية الاقتصادية).

من الممكن أن نجد تمثيلاً جيداً للرغبة في الإنقاص من قيمة قياس الذكاء خلال هذه الحقبة في ورقة بحثية، نُشرت في عام 1979 بعنوان "أخبار سيئة تخص اختبارات الذكاء"⁽³⁾ Bad News Concerning IQ Tests. تمثلت الأخبار السيئة التي أذاعتها الورقة البحثية في العثور على دليل على أن اختبارات معامل الذكاء ليست منحازة عرقياً أو اجتماعياً واقتصادياً. من الواضح من عنوان الورقة البحثية أن مؤلفيها أدركوا أن اكتشافاتهم البحثية لن تستقبل بترحاب.

(1) Hunt (2011)

(2) Steele (1997)

(3) Gordon & Rudert (1979)

ثلاث نظريات بارزة عن الذكاء نشأت في عصر الإنقاص من القيمة

حاول مُنظرون الابتعاد كذلك عن الطريقة التي صُورَ بها الذكاء مفاهيمياً وقياساً. يحدّد كتاب روبرت ستيرنبرج الصادر في عام 1985 بعنوان "ما وراء الذكاء: نظرية الأبعاد الثلاثة للذكاء البشري"⁽¹⁾ Beyond IQ: A Triarchic Theory of Human Intelligence تستهدف اختبارات الذكاء بُعداً واحداً منها فقط. في تسعينيات القرن العشرين، طَوَّر ستيرنبرج هذا التفكير، وأنشأ ما أسماه نظريته للذكاء الناجح⁽²⁾، تحتوي على الأوجه الثلاثة نفسها في نظريته ذات الأبعاد الثلاثة، لكنها موصوفة بلغة أبسط.

أطلق ستيرنبرج على الأوجه الثلاثة التي حدّدها، الذكاء التحليلي والذكاء العملي والذكاء الإبداعي. أوضح بصورة عامة أن الذكاء التحليلي يتضمن القدرة على تحليل الحل الجيد لمشكلة. ربط هذا بقدرة أكاديمية تقليدية، تركز عليها اختبارات معامل الذكاء. مع ذلك، ألحَّ على أن هذه القدرة بمفردها لا تقود الشخص إلى تحقيق النجاح في الحياة. لهذا السبب، يحتاج إلى قدرتين آخرتين: القدرة على استحضار مشكلات جديرة بالاهتمام لحلها (أفكار مبتكرة ومفيدة)، والتي نظر إليها على أنها ذكاء إبداعي؛ والقدرة على جعل الحلول تعمل ويقبل بها الآخرون، والتي نظر إليها على أنها ذكاء عملي. ولكن كيف تُعرَّف "النجاح في الحياة"؟

يُعرَّف ستيرنبرج النجاح في الحياة بمصطلحات نسبية تماماً، "بالنظر إلى معايير الواحد الشخصية ضمن السياق الاجتماعي الثقافي للواحد"⁽³⁾.

(1) Sternberg (1985b)

(2) Sternberg (1997)

(3) Sternberg (1999: 293)

وبالتالي، ووفقاً لهذا، لن يكون جاليليو جاليلي (انظر الفصل الأول)، والذي أثق في أننا نتفق على أنه أظهر أماراتٍ تدلُّ على ذكاء عام قوي - مؤهلاً لامتلاك ذكاء ستيرنبرج الناجح. يرجع هذا إلى أن أفكاره على الرغم من صحتها - كانت سابقةً لزمانه، ورفض هجرها وتكييفها وفقاً لسياقه الاجتماعي الثقافي، ولا يهم كم كان هذا غير عملي، وهو ما تسبَّب في قضائه لبقية حياته في حبس منزلي. هل كان سلوكه غير ذكي، هل تظن ذلك؟

من بين كل نظريات الذكاء فإن النظرية التي ربما تكون الأشهر من بينها جميعاً نشأت خلال عصر الإنقاص من القيمة، وهي: نظرية الذكاءات المترعدة multiple intelligences لهوارد جاردنر. ومن خلالها نظر جاردنر إلى العديد من القدرات غير الإدراكية بشكل جديد، واعتبرها أنواعاً من الذكاء. بدأ جاردنر بتعيين سبع مساحات مختلفة للأداء البشري، واعتبرها ذكاءات منفصلة: اللغوي والمنطقي الرياضي والمكاني والموسيقي والبدني-الحركي (كفاءة الحركة الجسمانية، كما نراها على سبيل المثال عند راقصات الباليه) والتفاعلية (يتعلق بالمهارات الاجتماعية والذاتي (يتضمن الوعي بالذات وفهمها)⁽¹⁾). وأضاف لاحقاً ذكاءين آخرين: الطبيعي (التعاطف مع ظواهر في العالم الطبيعي) والوجودي (ويماثل الوعي الروحياني والتَّبَصُّر)⁽²⁾. تتفاوت الذكاءات الثلاثة الأولى من بين التسعة التي يُطلق عليها ذكاءات مع ما يُقَيِّم في اختبارات الذكاء التقليدية. إلا أن الأمر لم يقف عند ذلك، بل وأضاف جاردنر لاحقاً ذكاءين آخرين: ذكاء الضوء الكاشف العقلي (القدرة على مسح أنظمة واسعة وتحقيق القيادة فيها) وذكاء الليزر (ويتضمن تخصصاً ضيقاً في فن أو علم أو تجارة معينة)⁽³⁾. تتمثل

(1) Gardner (1983)

(2) Gardner (1999)

(3) Gardner (2004)

إحدى طرق الإنقاذه من قيمة مفهوم الذكاء تحديداً في خلق تهمة من الذكاءات، إذ يعتبر وفق ذلك أي نشاط من أي نوع ذكاء، وتضاف طوال الوقت المزید والمزيد من الذكاءات.

استُقبلت نظرية جاردنر وستيرنبرج بحفاوة واسعة بسبب انحرافهما عن التركيز التقليدي على الإدراك، وحظيتا بدعم وتأثير اجتماعيين وثقافيين قويين. مع ذلك، بينما شاعت للغاية بين العامة، حظيتا بالقليل من التقدير في العالم العلمي؛ إذ تفتقران إلى الدعم التجريبى الذي نالته النظرية g. يُصلح على تسمية نظريات الذكاء التي تركز على المكونات التي ينطوي الأداء في اختبارات الذكاء عليها نظريات القياس النفسي psychometric theories، وتفتقر نظرية جاردنر وستيرنبرج لهذا التركيز. لذلك، فنظرتياهما ليستا نظرية لقياس نفسي للذكاء.

إذا تحولنا نحو نظريات القياس النفسي، نجد نظرية بارزة للقياس النفسي للذكاء، نشأت خلال هذه الحقبة: نظرية الذكاء السائل في مقابل الذكاء المتببور، لكاتيل - هورن. نشرها في البداية راي蒙د برنارد كاتيل وتلميذه چون هورن في عام 1960⁽¹⁾. تُعرف هذه النظرية الذكاء السائل أو Gf بالقدرة على الإتيان بتحليل طازج وحل للمشكلات الجديدة وغير المعتادة. يختلف هذا عن الذكاء المتببور أو Gc وهو القدرة على تطبيق المعرفة المكتسبة سابقاً على المشكلات الحالية. ونظراً إلى أن چون كارول عَدَلَها في تسعينيات القرن العشرين⁽²⁾، يُشار إليها أحياناً بنظرية كاتيل - هورن - كارول CHC أو نموذج الطبقات الثلاث للذكاء⁽³⁾.

(1) Horn & Cattell (1966)

(2) Carroll (1993)

(3) Mackintosh (2011)

التمييز ضد ذوي الذكاء الأعلى

رأينا في الفصل السابق أمثلة للكيفية التي تجلّت بها أخلاقيات عصر إضفاء المثالية في الطقوس المدرسية التي لفتت انتباه العامة بشدة إلى الذكاء والإنجاز الأكاديمي. كانت هذه الطقوس ببساطة جزءاً من اليوم الدراسي المعتاد، إلا أن المناسبات الخاصة التي تحدث مرّة في العام في بعض المدارس -مثل منح الجوائز- عُدلت في عصر الإنقاص من القيمة من أجل الحَطّ من شأنها، وهو ما يكشف كيف حُجب اللامعون. على سبيل المثال، غيرت مدرسة هاي جيت اللندنية الحاصلة على جائزة من احتفاليتها السنوية لتوزيع الجوائز لكي تجعلها حَدّاً أقل شعبية، بحيث يحضره التلاميذ الفائزون وعائلاتهم فقط. يضمن هذا ألا يعني من لم يحصل على جائزة عندما ينتبه إلى أن ثمة آخرين كان أداؤهم أفضل منه.

لم يخضع الإنجاز الأكاديمي فقط لمراجعة ثقافية خلال عصر الإنقاص من القيمة، بل طالت تلك المراجعة الإنجاز في العموم. غيرت الكثير من المدارس الابتدائية والثانوية في المملكة المتحدة كذلك من أحداث اليوم السنوي للألعاب الرياضية، حيث حلّت أنشطة لفرق محلّ موروث منافسات الأفراد ضد بعضهم البعض من أجل الفوز بالكؤوس والميداليات، وذلك تأكيداً على امتداح المشاركة. يشبه هذا كلمات طائر الدودو في رواية "أليس في بلاد العجائب": "فاز الجميع، ويجب أن ينال الجميع جوائز".⁽¹⁾

خلال عصر الإنقاص من القيمة، صارت الأخلاقيات العامة للتعليم تُعنى بتحديد المكابدين ومساعدتهم على تحسين تحصيلهم. ما زلنا نجد في أغلب النصوص التي تدور حول التعليم مُسلمة واضحة لا يتسرّب إليها الشك ترى أن الموارد يجب أن تُكرّس لذلك. لا نجد أبداً

(1) Carroll (1866: 34)

نحوًّا مُقابلاً لها يدعو إلى أهمية مساعدة أولئك الذين يستطيعون أن يؤدو ب بصورة أفضل بسهولة - أو أولئك الذين يؤدون جيداً - لكي يؤدو بشكل أفضل أو يخرجوا أحسن ما لديهم. في عام 2010 توقف برنامج الموهوبين والنابغين في المملكة المتحدة، وحولت الميزانية بدلاً من ذلك نحو مساعدة الشباب المُعوزين اجتماعياً واقتصادياً للدخول إلى الجامعة.

أعلنت بعض الجامعات بوضوح أنها غير مهتمة بمحاولة ضم الطلاب ذوي معامل الذكاء المرتفع المبشر لأنهم مجموعة سكانية صغيرة للغاية ليست ذات أهمية مالية بالنسبة لها. تستهدف سياستها التسويقية عن عمد المجموعات ذات الأداء الأكاديمي العادي. تبرر الجامعات ذلك بأن هذه المجموعات تشمل نسبة أكبر من الطلاب وبذلك يؤدي الاهتمام بها إلى ضم أعداد أكبر من الطلاب.

فور أن ينضمّ الطلاب، يوفّرون لأولئك الذين لا يؤدون جيداً في مقرراتهم مُرشداً لكل طالب منهم لكي يحسّنوا من نتائجهم. ومرة أخرى، لهذا الفعل حافز مالي، إذ يحاولون تقليل معدل التسرب (تسرب الطلاب ذوي الأداء المنخفض) وخسارة المصارييف الدراسية. إلا أن هذه السياسات تميّز ضدّ الطلاب ذوي الأداء المرتفع لأن أولئك الطلاب يدفعون الرسوم الدراسية نفسها ولا يوفّرون لهم الفرص نفسها، إذ لا يحصلون على مساعدة المرشد المعين لكل طالب من أجل تحسين الأداء. إذا توفر الإرشاد لمجموعات أخرى من الطلاب، فقد يساعد ذلك في رفع درجة الطلاب متوسطي الأداء إلى درجة الامتياز أو يساعد طلاب الفئة الأولى على تطوير إمكاناتهم إلى حدودها القصوى، ل تستهدف ما يفوق المطلوب من الصف الدراسي. إلا أن تمويل برنامج الإرشاد لا يستهدف إلا الطلاب ذوي الأداء المنخفض وغير متاح لأي مجموعة طلابية أخرى.

نرى سلوكيات التمييز ضد الذكاء المرتفع في عصر إنقاص القيمة، حيثما تُطلق تعليقات تزدري الذكاء المرتفع. على سبيل المثال، كتب صحفي أن ما تحتاجه للفوز بعضوية جمعية منساق الدولي لأصحاب مُعامل الذكاء المرتفع هو مُعامل ذكاء مرتفع جداً. ثم أضاف: "وأتصور أنك يجب أن تحصل كذلك على مُعامل ثقلٌ أعلى من المتوسط"⁽¹⁾.

ويمكننا أن نرى مثلاً لأقصى صور الإنقاص من قيمة الذكاء في كتاب عالم النفس التَّطُورِي ساتوشي كانازawa الصادر عام 2012 بعنوان "مفارقة الذكاء"⁽²⁾. يذهب إلى أن أصحاب الذكاء المرتفع جداً "أغبياء" و"أداؤهم غبي"، وغير مجهَّزين جيداً من أجل "أهم الأشياء في الحياة"، وهم "أكبر الخاسرين في الحياة". يحدُّد بالتأكيد ما يعنيه بكل هذا، لكنه يستخدم في لا مبالغة هذه العبارات المزدرية لوصف مجموعة من الناس، فصلها تماماً عن المجموع على أساس ذكائهما المرتفع. يُخَلِّف هذا في الواحد انطباعاً أن الذكاء المرتفع عيبٌ تَطُوري سخيف، يستحق أن نسخر منه، ويمكننا أن نسخر منه من دون أدنى شعور بالخزي.

نبذ أبحاث الذكاء

خلال عصر الإنقاص من القيمة مالت الكفة نحو رفض البحث في الذكاء في العموم واعتباره أمراً سلبياً. اصطلاح على تسمية ذلك "احتدام الجدل"⁽³⁾ controversialisation في مجال الذكاء. عانى

(1) Mahdawi (2017)

(2) Kanazawa (2012)

(3) مصطلح صَكَه الصحافي باري Parry, R. (2006). Why capitol pages fear retaliation. Consortium News. www.consortiumnews.com/2006/100206.html. استُشهد به في

Woodley of Menie et al. (2018).

الباحثون الذين وصلوا إلى اكتشافات علمية غير مستساغة بين أفراد المجتمع من "تغطية إعلامية عدائية وتفسيرات مسيئة خاطئة لأبحاثهم"⁽¹⁾. من بين هؤلاء الباحثين: آرثر جنسن، وتشارلز موراي، وليندا جوتفريديسون⁽²⁾.

أشارت حفيظة الناس أي إشارة إلى أن الذكاء سمة موروثة چينيًّا، إذ تقترب هذه العبارة بالعنصرية بسبب سياسات وممارسات عصر إضفاء المثالية. أوضحت دراسة أجريت على منشورات شديدة التنوع معدلاً كبيراً لظهور كلمة "ذكاء" أو "معامل ذكاء" في الجملة نفسها التي تظهر فيها كلمة "عنصرية" أو "عنصري"⁽³⁾. بحثت هذه الدراسة فيما نُشر بين عامي 1965 و2000، وهي فترة زمنية تقع بالكامل ضمن الفترة التي حددتها واعتبرتها عصر الإنقاص من القيمة.

يعُد رايوند برنارد كاتيل الذي أتيت سابقاً على ذكر نظريته عن الذكاء السائل في مقابل الذكاء المتبلور أحد الباحثين الذين أصبحوا مركزاً لجدل ساخن. تعرف المؤسسة الأمريكية لعلم النفس (APF) بأنه أحد أبرز علماء النفس في القرن العشرين، حصل على ميدالية ذهبية نظير مجمل إنجازاته في العلم النفسي. في أغسطس 1997 سافر كاتيل وهو في الثانية والخمسين من عمره من هاواي إلى شيكاغو لكي يتسلّم هذه الجائزة⁽⁴⁾. إلا أن الناشطين السياسيين هددوا بإفساد المراسم إذا مُنِح كاتيل جائزة دعم اليوجينيا خلال حياته المهنية. استجابت المؤسسة الأمريكية لعلم النفس لهذه الضغوط وقررت تأجيل حفل تسليم الجائزة. تصرف كاتيل بلباقة لكي ينزع فتيل الأزمة وأعلن أنه يتنازل

(1) Woodley of Menie et al. (2018: 84)

(2) من الممكن العثور على قائمة تفصيلية بهؤلاء الباحثين في (2003) (Nyborg)

(3) Woodley of Menie et al. (2018)

(4) Tucker (2009)

عن الجائزة. حدث هذا قبل ست شهور من وفاته في فبراير 1998. يكشف هذا الحادث عن مقدار تغيير التيار وانقلابه ضد عصر إضفاء المثالية الذي ارتبط كاتيل به. لقد رُفض عمل علمي كان مؤثراً بما يكفي لامتداحه وتكريمه بجائزة عن مجمل الإنجازات.

أُعيقت أبحاث الذكاء بسبب احتدام الجدل بخصوصه خلال الفترة التي شهدت ميلاً كاملاً نحو إنقاص القيمة. أو ضاق منظور الأبحاث حيثما كانت ما تزال تُجرى، وذلك من أجل الابتعاد عن الموضوعات الإشكالية. تمثلت هذه الإعاقة في مواجهة مثل هؤلاء الباحثين لصعوبات في تمويل عملهم أو نشره، والمعاناة من تراجع الدعم الاجتماعي من زملائهم وتراجع الموارد المؤسسية بل والإقالة من وظائفهم والتعرض لتهديدات الناشطين السياسيين بالعنف في بعض الحالات⁽¹⁾.

أدّت هذه التطورات المتمثلة في النظر إلى الذكاء باعتباره موضوعاً مثيراً للشكوك وإعاقة أبحاث الذكاء بالجامعات إلى التوقف عن تقديم حلقات دراسية عن الذكاء خوفاً من تكدير الصفو⁽²⁾. أوضحت دراسة عن محتوى علم النفس في الكتب المرجعية والمقررات الدراسية نُشرت في عام 2014 أن المساحة المكرّسة لموضوع الذكاء تراجعت من 6% من مساحة الكتاب المرجعي في ثمانينيات القرن العشرين إلى 4% في القرن الحادي والعشرين⁽³⁾. احتوى الكتاب في السابق على فصل كامل عن الذكاء، إلا أن هذا توقف حالياً، وبدلًا من ذلك كيّف موضوع الذكاء وُضم إلى أقسام أخرى مثل قسمي اللغة والفكر.

(1) Woodley of Menie et al. (2018)

(2) Woodley of Menie et al. (2018)

(3) Griggs (2014)

صعود التركيز على الذكاء العاطفي

شهدت تسعينيات القرن العشرين بداية الموازنة الشاملة للإعلاء من قيمة الذكاء الإدراكي في عصر إضفاء المثالية. بدأ الأمر بكتاب دانيال جولمان "الذكاء العاطفي"، كان عنوانه الفرعي "لماذا قد يكون أهم من معامل الذكاء"⁽¹⁾. تأتي عبارة الذكاء العاطفي emotional intelligence في الغالب في الصورة المختصرة EQ وأحياناً EI، يشير الذكاء العاطفي إلى قدرة الشخص على الوعي بعواطفه وفهمها والتعامل معها والتعبير عنها وفهم مشاعر الآخرين والتعامل معها من خلال التعاطف والمهارات الاجتماعية الفعالة. ازدهر التأييد الشعبي لنظرية الذكاء العاطفي إلى جانب التأييد الشعبي لنظرية الذكاءات المتعددة لجاردنر، قبل أن تناول أيٌ منها أيٌ تأييد تجرببي: تزايدت موضع الشبكة العنكبوتية التي تشرح هاتين النظريتين بمعدلٍ يساوي عشرة أضعاف معدّل الزيادة في مقالات المجلات المتخصصة عن هاتين النظريتين⁽²⁾.

مع اكتساب مفهوم الذكاء العاطفي للفعالية، أصبح النقد الشائع لذوي مُعامل الذكاء المرتفع أنهم لا يمتلكون الكثير من الذكاء العاطفي. يفصح الناس غالباً عن هذا في المحادثات العامة لأن من بواعث السرور قدرتهم على العثور على ذلك العيب، وكأنه عيب يبطل جدارة الذكاء الإدراكي. أطلق أحد المؤلفين على ذوي مُعامل الذكاء المرتفع "السخفاء المهرة"، قائلاً إنهم يتمتعون بسلوكٍ لا يليق اجتماعياً وذلك لأنهم يفتقرن إلى الحسّ المشترك⁽³⁾. تعرب هذه الانتقادات في العادة عن أن المفتقرين إلى الذكاء العاطفي يُلامون على

(1) Goleman (1996)

(2) Waterhouse (2006)

(3) Charlton (2009)

ذلك، كأنهم يستطيعون أن يكونوا أذكي عاطفياً، ويرجع وضعهم هذا إلى فشل من جانبهم.

الخبرة، ذروة عصر الإنقاص من القيمة

أرى أن حقبة الإنقاص من قيمة الذكاء بلغت ذروتها مع التأسيس لمجال الخبرة وجسمه بغياب الاختلافات في القدرة الإدراكية الفطرية وباستطاعة أي شخص تحقيق أي شيء طالما انخرط في "تدريب مدروس" كافٍ⁽¹⁾. بل وُضع تصوّرٌ لما يُعتبر كافياً: "10000 ساعة". يُستقى هذان المصطلحان بين علامتي التنصيص من عمل عالم النفس والباحث السويدي أندريهس إريكسون، الذي نشر بغزاره واستشهدوا بأفكاره وكرّوها في عدد من الكتب الرائجة التي ظهرت بين عامي 2008 و2014⁽²⁾ ربما يكون أشهرها كتاب مالكوم جلادوبل الصادر عام 2008 "والحاصل على المركز الأول للكتب الأكثر مبيعاً عالمياً" بعنوان "المتميزون: قصة نجاح"⁽³⁾. يؤكّد كتاب إريكسون وكل المنشورات التي تردد مقولاته على انعدام الحاجة إلى أي قدرة فطرية من أجل اكتساب الخبرة، وعلى غياب أي اختلافات وراثية في القدرة العقلية (تنحصر الاختلافات في القدرة البدنية التي تؤثر على الأداء الرياضي). بالنظر إلى جدلية الطبيعة في مقابل التنشئة، يؤسس هذا إلى تمجيد انتصار التنشئة على الطبيعة. انتشرت وجهات النظر هذه - كما عبر عنها إريكسون وجلادوبل وأخرون - بشكل واسع في المواد المنشورة السائدة والأكادémie، وأثرت تأثيراً عريضاً في السياسات والممارسات. على سبيل المثال، صرّح چوردون ستوبارت البروفيسور المنتسب إلى بعض

(1) Ericsson et al. (1993)

(2) انظر Falck (2020: 33)

(3) Gladwell (2008)

جامعات القمة في المملكة المتحدة في كتابه "المتعلم الخبير"⁽¹⁾ أن فكرة الشّنُوع الفطري في القدرة أسطورة وحَتَّى المؤسسات التعليمية على إعادة بناء افتراضاتها بخصوص هذا الأمر. أقرَّ عددٌ آخر من الأساتذة في المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا بقوة وجهات نظره، وأوصوا بهذا الكتاب واعتبروه "الكتاب الأوحد" الذي يجب أن يقرأه كل المعلّمين والأباء والموظفين والسياسيين المهتمين بالتعليم⁽²⁾.

السيكولوجيا الكامنة خلف عصر الإنقاص من القيمة

يتمثلُ الحافز النفسي الكامن وراء عصر الإنقاص من القيمة في الشعور بالذنب تجاه حقبة التمييز السابقة. جاء الشعور بالذنب تجاه الطريقة التي أُضفيت المثالية بها، وساد إحساس بالخزي تجاه التَّطْرُفات والفظائع التي قاد إليها إضفاء المثالية. إلا أن السعي إلى تسوية هذا، حَفِّزَ تمييزاً عكسيّاً. تطوّرت محاولة تدارك التمييز ضد الذكاء المنخفض إلى تمييز ضد الذكاء المرتفع، تسبّب ذلك في الإنقاص من قيمة الذكاء والتعزيز من ثقافة معاداة العقلانية anti-intellect. إن محاولة تسوية التمييز ضد فئة عن طريق عكس التمييز واستهداف الفئة الأخرى بالتمييز ضدها رد فعلٍ معتاد، يخلق دائرة مفرغة للتمييز. هذا ما عارضه نيلسون مانديلا ب بصيرة وحكمة ودأب خارق للعادة عندما أصبح أول رئيس أسود اللون لدولة جنوب أفريقيا. بعد أن سجنـه نظام الأبارتايـد مـدة 29 سنة. عـرف أن الرغبة في تعويض أولئـك الذين تعرـضـوا للتميـز ضـدهـم ستـكون قـوية وقد

(1) Stobart (2014)

(2) انظر الغلاف الخلفي لـ (2014)

تُحَفِّز بسهولة تمييزاً معاكِساً. لكنه أراد إنهاء دائرة التمييز؛ لذلك عارض الشأر. وبدلًا من ذلك، ضغط من أجل تسوية النزاعات.

عندما يسود الاعتراف بالتمييز والرغبة في إصلاحه، تنشأ دافعية نحو اجتناث الظلم. تُرجم الرغبة في العدل إلى قيمة أخلاقية وعقيدة سياسية، ترى أن المساواة بين الجميع واجبة. قد يجعلنا التركيز على هذا عرضة للاستدلال المغلوط. يتمثل أحد الأمثلة على هذا فيما اصطلح على تسميته "المغالطة الأخلاقية" *moralistic fallacy*⁽¹⁾. إنها ذلك الخطأ الذي نرتكيه عندما نعتقد أن أمراً على صورة ما لأنه يجب أن يكون على هذه الصورة؛ لذلك، نعتقد أننا جميعاً متساوون في الذكاء لأننا نقدر الذكاء ونعتقد أننا جميعاً يجب أن نتساوى في الأشياء التي نقدرها. من المقبول تماماً الاعتراف بوجود اختلافات فردية مُعينة بين البشر - مثل الاختلافات في الطول أو القدرة على ممارسة الألعاب الرياضية. نقبل بأن هذا أمر واقع، نتوقعه. مع ذلك، صار الانتباه إلى وجود اختلافات بين الأفراد من حيث القدرة العقلية شيئاً مرفوضاً تماماً وغير مستساغ في عصر الإنقاص من القيمة. ما الذي يجعلنا قادرين على التفكير بوضوح حينما نُعنى بالاختلافات الفردية على شاكلة الطول، في حين نقع فريسة للمغالطة الأخلاقية حيثما نُعنى بالذكاء؟

تتلخص الإجابة في أن قدرتنا على التفكير بوضوح تتشوّش عندما تتحفّز المشاعر. عندما نُعنى بالمشاعر، يُلغى العقل والمنطق⁽²⁾. لا تشكل الاختلافات الفردية على غرار الطول تهديداً (في العموم)؛ لذلك لا تُحَفِّز استجابة عاطفية تجاهها؛ ما يسمح للمنطق بأن يسود. لكن الذكاء يشكل تهديداً؛ لذلك تتدخل المشاعر. أطّرنا للأسباب التي قد

(1) Davis (1978)

(2) Pham (2007)

تجعل الذكاء يشكل (في العموم) تهديداً في الفصل الأول، في القسم الذي يحمل عنوان "خوفنا من الذكاء"، إلا أن هذه الأسباب تعزّز بشدة بسبب سياسات وممارسات عصر إضفاء المثالية. خلال عصر إضفاء المثالية، قد يحذّر بك خطر فعلي عظيم وقد يُحكم عليك بالموت لأنك لست ذكيّاً بما يكفي، ولا خطر أعظم من ذلك. أرى أن النظرة التي تعتبر الذكاء - كما كتب مؤلف ذات يوم - "أهم سمة يمكن أن يمتلكها إنسان"⁽¹⁾ نتيجة مباشرة لعصر إضفاء المثالية.

يرتبط الحسد بالعدل والثار وهو جزء آخر من نفسيتنا، أطلق تحول النموذج في عصر الإنقاص من القيمة له العنان. إن الحسد هو ما نشعر به تجاه الآخرين، الذين نرى أنهم يمتلكون مَزِيّة لا تمتلكها (يا له من ظُلم!). يجعلنا الحسد نرغب في إفساد المزّيّة: نشعر كأن الشخص الذي نحسده فعل شيئاً بغيضاً لنا وتلح علينا الرغبة في الثأر. قد يجعلنا الاعتقاد في أن شخصاً يمتلك مَزِيّة نشعر تلقائياً بالسوء حيال أنفسنا عندما نقارن أنفسنا بذلك الشخص وهو ما يجعلنا نشعر بشعور سلبي نحوه. قال أوسكار وايلد الكاتب المسرحي الأيرلندي *الفطين*: "العامة متسامحون للغاية، يسامحون أي شيء إلا العبرية"⁽²⁾. على العكس من ذلك، إذا رأينا شخصاً آخر يعاني، لا نحسده بالتأكيد ونشعر تلقائياً بشعور جيد تجاه أنفسنا عندما نقارن أنفسنا بذلك الشخص، يلخص هذا كله المصطلح الألماني Schadenfreude (الشماتة)، الذي أقرّه في ترhab العالم المتحد بالإنجليزية: تعني كلمة Schadenfreude الابتهاج بمصاب الآخر. أوضحت المؤرّخة الثقافية تيفاني وات سميث⁽³⁾ أن ثقافات أخرى كثيرة تمتلك مصطلحات مشابهة:

(1) Kanazawa (2012: 1)

(2) استُشهد به في Silverman (2013: 51)

(3) Smith (2018: 2)

لدى اليابانيون قول مأثور: "لمصائب الآخرين مذاق العسل". يتحدث الفرنسيون عن *joie maligne*, الفرح الخبيث بمعاناة الآخرين. يتحدث الدانماركيون عن *skadefryd*, والهولنديون عن *leedvermaak*. وفي العبرية تعني *simcha la-ed* الاستمتاع بنكبات الآخرين... منذ ما يزيد عن الألفي عام... وصف اليونانيون *epichairekakia* (حرفياً تعني *epi* على *chairo* الابتهاج و *kakia* الخزي). كتب الفيلسوف فريديريك نيتشة: "يفيد الواحد أن يرى معاناة الآخرين".

تستشهد سميث بقارئ للنيويورك تايمز في عام 2008، إذ أعرب عن حزنه من أنها نعيش في "العصر الذهبي للشماتة", "Schadenfreude" و تستشهد بمعلقاً في جريدة الجارديان التي تصدر في المملكة المتحدة، إذ اصطلاح على تسميتها *Spitegeist* (الحقد الروحي)⁽¹⁾. قد تكون هذه مرادفات ملائمة لما أطلقت عليه عصر الإنقاصل من القيمة.

اكتسبت نظرية الخبرة شعبية كبيرة، إذ جاءت في صورة استجابة مضادة لأطروحة إضفاء المثالية على الذكاء، وتعد نقيراً للأطروحة. تجعل الجميع يشعرون بشعور جيد تجاه أنفسهم، فطالما لا يمتلك أحد قدرة فطرية مرتفعة، لا داعي للشعور بالحسد. لا داعي للخوف من عجز قدراتنا، لأننا على قناعة من أن الذي يبذل الجهد الكافي يمكنه تحقيق أي شيء. إذا اعتقينا أن الآخرين نجحوا لأنهم بذلوا قصارى جهدهم فقط، نستطيع تفريح حسدنَا عن طريق السخرية من عملهم - تُستخدم كلمات، الدحيح! *swot* مهووس بالدراسة! nerd فتى المعلم المدلل! Teacher's pet على سبيل الإزدراء، يُقذف بها أصحاب الإنجازات في عصر الإنقاصل من القيمة من دون عقاب. لا يبدو أن أحداً شبه هذا السلوك بسلوك إطلاق الألقاب على أصحاب الإنجازات المتدينية خلال عصر إضفاء المثالية (مثل مغفل،

(1) Smith (2018: 11)

أبله، معتوه) وهي الألقاب التي استهجنـت بحلول عصر الإنقاـص من القيمة، لم يزعـج أحدهـم نفسه بعقد مثل هذه المقارنـات.

يؤدي الاعتقـاد في أن الناجـحين استطـاعوا ذلك عن طـريق بـذل المـزيد من الجـهد فقط إلى تـحقيق ما عـرفـه البـاحث نورـمان فيـثر⁽¹⁾. بـعيـار العـذر بالـاستحقـاق excusing criterion of deservingness. إذا اعتقدـنا أن شـخصـاً يـستـحقـ شيئاً، فـلن نـرى في ذلك ظـلـماً. نـشـعـر بالـسعـادة لـنجـاحـ الشخصـ وـنقـمعـ حـسـدـناـ. إذا اعتقدـنا أنه يـستـحقـ النـجـاحـ لأنـه عملـ بـجـدـ منـ أـجـلـ ذـلـكـ، وـمـنـ الأـفـضـلـ أنـ يـكـونـ بدـأـ محـرـومـاـ وـانـتـقلـ منـ الفـقـرـ المـدـقـعـ إـلـىـ الثـراءـ. تـكـمـنـ المـشـكـلةـ الـوـحـيـدةـ فيـ أنـ التـصـورـ عـنـ الـخـبـرـةـ لـيـسـ صـحـيـحاـ تـامـاـ.

كيف انتهى عصر إنقاـصـ الـقيـمةـ

إـذاـ شـاهـدـ أحـدـ مـجمـوعـةـ أـفـرادـ لـهـمـ الـعـمـرـ نـفـسـهـ يـتـقدـمـونـ لـلـمـهمـةـ نـفـسـهاـ، سـيـلـاحـظـ وـجـودـ اختـلـافـاتـ فيـ الأـداءـ فيـماـ بـيـنـهـمـ. هـلـ يـرـجـعـ هـذـاـ بـالـكـاملـ إـلـىـ أـنـهـ تـلـقـواـ مـقـادـيرـ مـتـبـاـيـنـةـ مـنـ التـدـريـبـ عـلـىـ تـلـكـ الـمـهـمـةـ أـوـ انـخـرـطـواـ فيـ مـقـادـيرـ مـتـبـاـيـنـةـ مـنـ الـمـمارـسـةـ؟ـ قـدـ يـجـدـ الـواـحـدـ أـنـ الـعـدـيدـ مـنـ الـكـتـبـ الـتـيـ تـنـشـرـ وـجـهـةـ النـظـرـ الـتـيـ تـرـىـ أـنـ أيـ شـخـصـ يـمـكـنـهـ أـنـ يـحـقـقـ أيـ شـيءـ إـذـاـ بـذـلـ الـجـهـدـ الـكـافـيـ تـحـتـويـ عـنـ غـيرـ قـصـدـ كـمـاـ نـظـنـ.ـ عـلـىـ تـفـاصـيلـ تـنـاقـضـ هـذـهـ الـرـوـءـيـةـ.ـ أـضـرـبـ مـثـالـاـ عـلـىـ ذـلـكـ مـنـ كـتـابـ دـانـيـالـ كـوـيـلـ "ـشـفـرـةـ الـموـهـبـةـ"ـ Talent Codeـ⁽²⁾.

يـجـزـمـ كـوـيـلـ بـشـدـةـ وـبـإـصـرـارـ بـأـنـهـ لـاـ وـجـودـ لـشـيءـ يـدـعـىـ مـوـهـبـةـ،ـ وـأـيـ شـخـصـ يـعـملـ بـاجـهـادـ كـافـيـ وـيـعـرـفـ مـاـ يـعـمـلـ عـلـيـهـ،ـ يـسـتـطـعـ النـجـاحـ.

(1) Feather (2012)

(2) Coyle (2010)

يخربنا بقصة مدربة الأداء الصوتي ليندا سبتيان، التي بدأت هي نفسها كمغنية ودرست كل شيء متعلق بالأداء الغنائي الناجح بشكل دقيق. وعن طريق تطبيق كل ما تعلّمته على الطلاب الذين اضطاعت بأمرهم وعلمتهم الغناء، أصبح بعضهم (مثل چيسيكا سيمبسون) فنانين ناجحين ومشهورين. ولكن، بالرغم من أنها تعرف بشأن كل التفاصيل التي تحتاج للعمل عليها وكيف تعمل عليها، كتب كويل: "بالرغم من كل هذا العمل، فشلت سبتيان في حياتها المهنية كمغنية على مدار السنوات التالية"⁽¹⁾. إذا كانت معرفة ما الذي تعمل عليه وعملك باجتهاد شديد عليه هو كل ما يتطلبه النجاح، إذن من غير المنطقي أن تفشل سبتيان في حياتها المهنية كمغنية؟

لا يعترف مؤيدو منظور الخبرة بأن البعض لا ينجحون (مثل سبتيان) على الرغم من المعرفة والعمل الجاد، في حين ينجح البعض الآخر (مثل بعض طلابها). من غير المنطقي أن نعزّز الأمر برُمْته إلى التدريب المدروس عندما يؤدي أحدهم جيداً بشكل مدهش في أمر ما. بالرغم من أنهم أنكروا وجود شيء مثل الموهبة / البراعة العقلية، استمرت كتب الأدلة التشخيصية للأضطرابات النفسية في ذكر الإعاقة العقلية واعتبرت حالة موجودة⁽²⁾. لم يعتبروا أن أعراض الإعاقة العقلية لا تعدو أن تكون غياباً للتدريب المدروس.

قد نرى تناقضًا إضافيًّا في استمرار السعي الحثيث نحو الذكاء في عصر إنقاص القيمة، على الرغم من أن الفكرة السائدة وقتها أن المهارات الاجتماعية والجهد والتدريب المدروس أهم بكثير من الذكاء. استمرَّت الكثير من المدارس والجامعات ومؤسسات الأعمال في استخدام تقييمات مشابهة كثيراً لاختبارات مُعامل الذكاء، من أجل

(1) Coyle (2010: 181)

(2) American Psychiatric Association (2013)

تقديم المناصب لأولئك الذين يحصلون على أفضل النتائج. ثمة مثال آخر مذهل، في تسعينيات القرن العشرين أُسيئ عرض تقرير منشور في مجلة نيتشر في التغطية الإعلامية الواسعة، إذ أعلنوا أن التقرير يقدم دليلاً على إمكانية تعزيز مُعامل الذكاء ببساطة عن طريق الاستماع لموزارت⁽¹⁾. كان من المتوقع أن يتجاهلوها التقرير، وألا يسفر عن شيء؛ لأنهم سبق وسفهوا من مُعامل الذكاء، إلا أن التقرير استثار فعلياً نزعة عمرها 17 عاماً عند الآباء والتربويين والمسؤولين عن الميزانية في الحكومة للاستثمار بحماس في تسجيلات موزارت؛ رغبة منهم في تحقيق "تأثير موزارت" (وذلك قبل أن يُدحِّض التقرير بشكل قاطع).

أرى أن عصر الإنقاص من القيمة بلغ نهايته نتيجة تراكم الأدلة المتنامية ضد إدعاءاته -على الرغم من شعبيتها- وهي الادعاءات التي تذهب إلى غياب أي اختلاف فطري في الذكاء بين مختلف الناس، وأن الذكاء بلا تأثير على الأداء. دُحِّضت المنشورات التي تطرح هذه الادعاءات، على غرار كتاب ليون كامين "العلم والسياسة وراء معامل الذكاء" The Science and Politics of IQ⁽²⁾. ذكرت في بداية هذا الفصل كتاب جولد ذا التأثير الكبير، والذي يعارض كذلك نتائج الأبحاث التي تعَضَّد الاختلافات الفردية في الذكاء، طُعن في الكتاب على أساس أن وراءه دوافع سياسية، وأنه احتوى على "تحريف منهجي وعرض غير نزيه للبيانات"⁽³⁾. بدأ يجتمع المزيد والمزيد من الأدلة التي تدحض وجهات نظر إريكسون، واتّهم كذلك بإساءة عرض نتائج بحثه⁽⁴⁾.

(1) انظر Haier (2017)

(2) Kamin (1974)

(3) Woodley of Menie et al. (2018: 85)

(4) Gagné (2013)

ولكي أعين حداً زمنياً لانتهاء مرحلة انتقاد القيمة، اعتبر نقطة التحول نشر موضوع خاص في مجلة الذكاء⁽¹⁾ في عام 2014 كرس لاستجواب مفهوم الخبرة. عرض بحثاً أوضح أن التدريب المدروس وحده لم يكن كافياً لتحقيق أداء احترافيًّا في كل من الشطرنج والموسيقى؛ المجالين اللذين انصبَتْ عليهما الأبحاث في مجال الخبرة. أوضح البحث أن التدريب ومعامل الذكاء أسهماً في الأداء بشكل مستقلٍ، وأن الأداء الاحترافي يعتمد بصورة كبيرة على معامل الذكاء المرتفع. من الواضح أن قاعدة الحاجة إلى التدريب لمدة 10000 ساعة -يقال إنها تعادل 10 سنوات من التدريب المركَز- من أجل اكتساب الخبرة غير صحيحة بالنسبة إلى طفل معجزة حقق أداء موسيقياً استثنائياً قبل أن يبلغ عمره عشر سنوات⁽²⁾. أحد الأمثلة على ذلك طفل أمريكي عمره 6 سنوات، معجزة موسيقية، لم يكن قد تلقَّى أي دروس موسيقية نظامية أو انخرط في أي تدريب مدروس حين بحثَت حالته في عام 2003، بالرغم من ذلك عزف في فرق موسيقية كثيرة، وظهر مرّاتٍ عديدة على شاشة التليفزيون الوطني، وظهر في فيلمين، وأصدر قرصين مدمجين، غنَّى فيما بلغتين، وعزف على آلات موسيقية عديدة، ويرجع ذلك كلَّه إلى قدرته على تذكُّر الألحان وإعادة إبداعها⁽³⁾. جاءت نتائجه أعلى كثيراً من المتوسط في كلِّ أقسام مقياس ستانفورد- بينيه للذكاء. بالإضافة إلى كل هذه الحجج التي تدعم أن التدريب المدروس وحده ليس كل ما يلزم من أجل الحصول على الخبرة، أوضح بحث آخر أن الأفراد يُؤدون بمستويات مختلفة عند حصولهم على القدر نفسه من التدريب، وأن التدريب يزيد الفارق بين الأفراد عادة⁽⁴⁾.

(1) Intelligence (2014)

(2) Ruthsatz et al. (2014)

(3) Ruthsatz & Detterman (2003)

(4) Gagné (2013)

أوضحت دراسة أجريت على 120 مؤلّفاً للموسيقى الكلاسيكية أن اكتساب الخبرة يستغرق قدرًا محدودًا من الوقت في المتوسط، إلا أن المؤلفين الموسيقيين الذين يكتسبون الخبرة في فترة زمنية أقل من المتوسط يصبحون أبرز وأغزر إنتاجاً، ويحصلون على حياة مهنية مثمرة طويلة⁽¹⁾. يوضح هذا أن الوقت المستغرق في التدريب قد يتنااسب عكسياً مع الإنجاز.

إذا كان نموذج الخبرة غير دقيق، أو على الأقل لا يحمل القصة الكاملة، إذن يحتاج إلى أسلوب مختلف للنظر إلى الأشياء، يستطيع أن ينجح في فهم ماهية الواقع الحقيقي. يستحدث هذا البحث عن نموذج جديد، يمكنه استيعاب التعقيدات العظيمة التي واجهناها إلى الآن. هذا ما نستكشفه في الفصل التالي.

(1) استُشهد به في Simonton (2009)

4

تكامل التّنوع العصبي

رأينا في الفصلين السابقين كيف أفسحت أطروحة إضفاء المثالية على الذكاء التي ميّزت فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، الطريق لنقيضها؛ أطروحة الإنقاص من قيمة الذكاء، بعد الحرب العالمية الثانية. بلغت هاتان الحقبتان كلتاهمما ذروتهما في خضم تغيير اجتماعي كبير، تضمن تبدلات في الأنماط السلوكية والقيم الثقافية والأعراف، أسفرت عن تبعات اجتماعية عميقة. بلغ عصر إضفاء المثالية ذروته مع اليوچينيا، وفظائعها ومُثلها القائمة على الطبيعة الساعية إلى مجتمع أفضل. بلغ عصر الإنقاص من القيمة ذروته مع الانتشار الواسع لنظرية الخبرة لأندريس إريكسون القائمة على التنشئة، ومع تبني تلك النظرية وتطبيقها، وإلهامات المصاحبة لها ومفاهيمها المغلوطة. لم يطرح عصر إضفاء المثالية وعصر الإنقاص من القيمة - كلاهما - فيما يتعلّق بالذكاء البشري سلوكياتٍ وممارساتٍ

مُجديَّة طويَّلة الأَمْد، إِنْسانيَّة ووَاقعِيَّة في الْوَقْتِ نَفْسِهِ. خَلَقَ كُلُّ عَصْرٍ مِنْ هَذِينَ الْعَصْرَيْنِ نَمْوذِّجًا وَتَطَرَّفَ بِهِ: يَعْارِضُ كُلُّ نَمْوذِّجٍ مِنْهُمَا النَّمْوذِّجُ الآخَرُ بِشَكْلٍ مُباشِرٍ.

كَتَبَ الشَّاعِرُ الْمُتَبَرِّضُ وَلِيمُ بَلِيكُ: "يُؤَدِّي طَرِيقُ التَّطَرُّفِ إِلَى قَصْرِ الْحُكْمَةِ"⁽¹⁾. إِذَا تَعْلَمْنَا مِنْ دُرُوسِ تَطَرُّفاتِ عَصْرٍ إِضَافَةً لِلْمُثَالِيَّةِ وَعَصْرِ إِنْقَاصِ الْقِيمَةِ، يَمْكُنُنَا أَنْ نَخْلُقَ تَوْلِيفًا بَيْنَ مَوْقِيْهِمَا الْمُتَعَارِضَيْنِ وَنَسْعِي إِلَى تَوازِّنٍ، إِلَى طَرِيقٍ وَسَطٍ. (نَجَدَ فِي الْبُودِيَّةِ أَنَّ التَّنْوِيرَ يَجْدُهُ الطَّرِيقُ الْوَسْطُ، وَإِحْلَالَ بَصِيرَةَ دَقِيقَةِ مَحَلِّ التَّطَرُّفاتِ الرَّافِضَةِ وَمَحَلِّ تَفْكِيرِ "الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ"). يُعْنِي هَذَا الفَصْلُ بِكَيْفِيَّةِ خَلْقِ مُثَلِّ هَذَا التَّوْلِيفِ، الَّذِي يَقُودُنَا إِلَى عَصْرِ ثَالِثٍ؛ عَصْرِ التَّكَامُلِ، وَالَّذِي بَدَأَتْ عَلَامَاتُهُ بِالْفَعْلِ فِي الْظَّهُورِ. أَذْهَبَ إِلَى أَنَّ السَّبِيلَ نَحْوَ التَّكَامُلِ يَتَضَمَّنَ اعْتِرَافًا مُباشِرًا وَغَيْرَ مُميَّزِي، وَقَبُولًا بِأَنَّ الْاِخْتِلَافَ فِي مَسْتَوَيَاتِ الذَّكَاءِ وَاحِدٌ مِنَ الْطَّرِقِ الَّتِي يَخْتَلِفُ بِهَا النَّاسُ عَنْ بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ. إِنَّ الذَّكَاءَ -بِبِسَاطَةِ- هُوَ أَحَدُ الْمَلَامِحِ الْكَثِيرَةِ لِلتَّنْوِيرِ الْبُشَرِيِّ، وَهُوَ مَلْمَحٌ سَأَشْرِحُهُ مُعْتَرِّفًا أَنَّهُ يَنْتَمِي لِفَتَّةِ "الْتَّنْوِيرِ الْعَصْبِيِّ". إِلَّا أَنَّ الفَصْلَ يَبْدُأُ أَوَّلًا بِإِيَادِهِ الْمُؤْمِنَةِ بِالنَّظرِ فِي الْمَوَاضِيعِ الْمُرْكَزِيَّةِ الَّتِي طُرِحَتْ فِي الْفَصْلَيْنِ السَّابِقَيْنِ كَيْ نَرَى أَيْنَ وَصَلَنَا فِي هَذِهِ الْمَوْضِوعَاتِ مَعَ دُخُولِنَا عَصْرِ التَّكَامُلِ.

قياس الذكاء في عصر التكامل

بِحَلُولِ الْقَرْنِ الْحَادِيِّ وَالْعَشِيرِيِّ، تَقدَّمَتْ كَثِيرًا تَقْنِيَّاتٌ فَحَصَّ الْأُسُسُ الْفَسِيُولُوْجِيَّةُ لِلذَّكَاءِ. بِدَلَالٍ مِنْ أَسْلُوبِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ مُحاوَلَةً حَسَابَ حَجْمِ الدَّمَاغِ عَنْ طَرِيقِ مَلْءِ جَمَاجُمِ الْبَشَرِ الْمُوتَوِّيِّ بِالْبَذُورِ أَوْ طَلَقَاتِ الرَّصَاصِ، مُثَلِّمًا فَعَلَ صَامُوْيلُ مُورْتُونُ (انْظُرْ الْفَصْلَ

(1) Blake (1994/1794)

الثاني)، صار من الممكن حالياً قياس أدمغة البشر الأحياء مباشرة بطرق متنوعة. بدلاً من القيام بافتراضات بخصوص الكيفية التي قد ترتبط بها القياسات الفسيولوجية بالذكاء، كما فعل مورتون، نستطيع الآن اختبار ذلك تجريبياً. منذ ثمانينيات القرن العشرين حين طرحت تقنيات تصوير الدماغ لأول مرة، مثل التصوير المقطعي باستخدام الإصدار البوزيتروني PET scans (PET) والرنين المغناطيسي الهيكلي (MRI) والرنين المغناطيسي الوظيفي fMRI، استُخدِمت وتزايد استخدامها على مر العقود في أبحاث العلوم العصبية للذكاء.

أثبتت الأبحاث التي تعتمد على استخدام هذه التقنيات أن حجم الدماغ أو سعة الجمجمة ترتبط فعلياً بالذكاء، وكذلك حجم المادة الرمادية في الدماغ وكثافة المادة البيضاء⁽¹⁾. نجد أن قياسات كل هذه العناصر أكبر في الأفراد ذوي الذكاء الأعلى. (تأكد هذا في دراسة صدرت في عام 2017، أُجريت على 1812 طفلًا في مدارس السعودية العربية، أوضحت أن محيط الدماغ يرتبط بالذكاء بقوة)⁽²⁾. وكذلك يرتبط مُعامل الذكاء المرتفع بالكتفاف العصبية. يعني هذا أن تعلم مهمّة جديدة، يستلزم نشاطاً أقلً في القشرة الدماغية، واستخداماً أفضل لموارد الدماغ من الجلوكوز؛ وبالتالي استهلاكاً أقل للطاقة في أثناء أداء المهمة⁽³⁾.

من المحتمل أن نصل مع هذه التطورات في الدراسة الفسيولوجية للذكاء إلى قياس الذكاء في المستقبل عن طريق تحليل صور مأخوذة للدماغ، أو عن طريق استخدام وسيلة، تُجرى الأبحاث عليها حالياً، يُطلق عليها القياسات الميكانيكية chronometrics. تتضمّن قياس سرعة معالجة المعلومات في الدماغ بوحدات الميللي ثانية، وهو ما يطرح

(1) Haier (2017)

(2) Bakheit et al. (2017)

(3) انظر Haier (2017)

احتمالية ابتكار مقياس النسبة لقياس الذكاء، غير الموجود إلى الآن⁽¹⁾. قد يصبح تحليل الذي إن إيه DNA وسيلة مستقبلية بديلة أخرى لقياس الذكاء، إلا أن هذا مُعَقَّد للغاية. سوف نقول المزيد عن علم الجينات لاحقاً في هذا الفصل (في القسم الذي يحمل عنوان "التأليف بين الطبيعة والتنشئة").

في الوقت نفسه، تقدَّمت الأمور كذلك على مستوى القياس النفسي. بحلول القرن الحادي والعشرين، حُسِّنت (وما زالت تُحسَّن حالياً) اختبارات الذكاء التي نشأت في عصر إضفاء المثالية وانْتُقدَت في عصر الإنفاس من القيمة بحيث أخذت تعالج الانتقادات التي وُجِّهَت إليها. تراكمت على مَرَّ عقود أدلة قيمة، تثبت المصداقية والصحة العامة لهذه الاختبارات. ثمة استثناءات دائمة، إلا أنه اتضح أن اختبارات معامل الذكاء تتبنَّى بصورة دقيقة في العموم بالأداء الإدراكي لشخص، بغضِّ النظر عن المتغيرات مثل السن والعرق والنوع والحالة الاجتماعية الاقتصادية⁽²⁾، وخطر التنميط⁽³⁾. أُعلن "الأفول العلمي" للفكرة التي تتهم اختبارات الذكاء بالانحياز⁽⁴⁾.

مع ذلك، من المهم للغاية أن نكون واضحين بخصوص ما تقيسه الاختبارات فعلياً. إنها تقيس القدرة الإدراكية تحديداً؛ الذكاء العام أو g. لا تقيس القدرات الشاملة غير الإدراكية للشخص، أو العوامل الأخرى، مثل العاطفة والمهارات الاجتماعية أو الأخلاقيات. تتجنَّب بعض الاختبارات -مثل اختبار المصفوفات المتدرجة لرافن- أي أسئلة تتصل بالمعرفة أو المفردات (بمعنى آخر، تتجنَّب الذكاء المتبليور أو Gc). تقيم مثل هذه الاختبارات التفكير

(1) انظر Haier (2017)

(2) انظر Haier (2017)

(3) انظر Warne et al. (2018)

(4) Hunter & Schmidt (2000: 151)

المنطقى المجرد (الذكاء السائل أو Gf) لكي تضمن أن النتائج محايدة ثقافياً. يعني هذا أن النتائج لا تتأثر بخلفية من يخوض الاختبار أو بمستوى تعليمه أو بكفاءته اللغوية. تستخدم مصفوفات رافن المتدرجة "مصفوفة التفكير المنطقى" الموصوفة في الفصل الثاني، ليس على من يخوض هذا الاختبار إلا أن يتعرف على الأنماط المنطقية في سلسلة من الصور (مع ذلك، ما زال الاختبار يعطي الأفضلية للثقافات المتميزة في التفكير المنطقى). حدثت الاختبارات الرائجة الأخرى - مثل مقياس وشرل لذكاء الأطفال WISC، ومقياس وشرل لذكاء الراشدين WAIS، ومقياس ستانفورد - بيئه للذكاء - لتكون مناسبة بدرجة أكبر لتنوع من يخوضون الاختبارات⁽¹⁾.

إلا أن المتشعب الإيجابي - كما عرّفه تشارلز سبيرمان (انظر الفصل الثاني) - يعني أن الاختبار المستخدم لا يهم كثيراً، لأن جميع الاختبارات متربطة بدرجة كبيرة. أكَّدت هذا دراسة نظامية، حللت ما يزيد عن 460 مجموعة من نتائج اختبارات الذكاء⁽²⁾، إنها واحدة من أكثر نتائج الأبحاث تكراراً في مجال علم النفس كله⁽³⁾. تعني جملة سبيرمان "لا أهمية المؤشر" indifference of the indicator أن المحتوى السطحي لعناصر اختبارات الذكاء غير ذي صلة. يعني آخر لا يهم ما إذا سُئل الشخص أن يكمل لغزاً أو يعين التشابهات أو الاختلافات في الصور أو يوصل الرموز معًا بأسرع ما يقدر عليه: تتطلب كل هذه المهام جهداً إدراكيًّا. في الحقيقة، من السهل جدًا قياس الذكاء لدرجة أنه من الصعب ألا تفعل: أحياناً ينتهي الحال بالأشخاص الذين يباشرون إلى قياس مكون آخر إلى ابتكار اختبارات للذكاء⁽⁴⁾.

(1) Maltby et al. (2017: 309)

(2) Carroll (1993)

(3) Ritchie (2015)

(4) استُشهد به في Warne et al. (2018: 41)

لديّ شيء واحد لأقوله، بحلول القرن الحادي والعشرين، ثبّتت صحة بعض افتراضات عصر إضفاء المثالية التي تعرّضت لمقاومة شديدة في أثناء عصر الإنقاص من القيمة. ولكن كيف نستخدم هذه المعلومات لكي نتجنب أزمات عصر إضفاء المثالية؟ وكذلك، كيف يمكننا التغلب على العدائية نحو موضوع الذكاء والبحث فيه؛ تلك العدائية التي ترسّخت خلال عصر الإنقاص من القيمة؟

أخلاقيات إجراء اختبارات الذكاء

عند الحديث عن تأثير ما أدعوه عصر الإنقاص من القيمة على مجال البحث في الذكاء، ذهب عدد من المؤلفين⁽¹⁾ إلى حاجتنا إلى التمييز بين الحقائق المكتشفة من خلال البحث العلمي وبين القيم التي قد نربطها بهذه الحقائق. فَكُرّ في حقيقة مركزية الشمس العلمية (والتي تشير إلى أن الأرض تدور حول الشمس). إن هذه الحقائق العلمية مَعَارِفٌ محايدة ببساطة، بيانات ليست إيجابية أو سلبية في حد ذاتها. هذا مؤكد. ولكن للناس قيمهم. يفسّر الناس المعارف ويعتبرونها إيجابية أو سلبية، وفق قيمهم الخاصة. تعرض اكتشاف أن الأرض تدور حول الشمس لمقاومة شديدة بسبب معانٍ ترتبط بهذا الاكتشاف ومشاعر الناس تجاه تلك المعاني. اعتُبرت مركزية الشمس تهديداً لأنها قللّت من إحساس الناس بأهميّتهم، بوصفهم مركز الكون، ولدى الكثيرين أسبابهم لرفض تغيير هذا المنظور المفضل للعام.

للباحثين الذين يسعون خلف اكتشاف الحقائق العلمية قيمُهم، يتأثرون بالمعاني والمشاعر الشخصية. ما الذي يدفع باحثاً للبحث عن

(1) على سبيل المثال (Haier 2017); (Ritchie 2015); (Hunt 2011)

حقيقة دون الأخرى؟ تخسر الإنسانية خسارة كبيرة إذا نُبذت أبحاث الذكاء، ولكن كيف يقوم بها بصورة أخلاقية؟ أظن أننا قد نجد مثلاً كاشفًا للغاية لما ينطوي عليه الأمر إذا نظرنا مرة أخرى في منهجية البحث الخاص بملء الجمجمة.

في الوقت نفسه تقريرًا الذي أجرى فيه صامويل مورتون حساباته حول سعة الجمجمة على خمس مجموعات عرقية في الولايات المتحدة الأمريكية، أجرى عام التشيح والسيولوجيا فريدریش تیدمان حساباتٍ مُماثلةً تقريرًا في ألمانيا. قاس سعة ما يزيد عن 400 جمجمة من خمس مجموعات عرقية كذلك، ونشر نتائجه في عاميْ 1836 و1837⁽¹⁾. وافقَت قياسات السعة الداخلية التي وصل إليها تیدمان، تلك القياسات التي وصل إليها مورتون. إلا أن ما فعله الباحثان بعد ذلك بمجموعتيهما من البيانات كان مختلفاً تماماً.

حسب مورتون متوسط أوزان الدماغ في كل عرقٍ، ثم قارن بين هذه المتوسطات ورتبها ورتب الأعراق. استخدم هذه الأرقام ليقول إن الأعراق ذات الترتيب المتقدم يجب أن تخضع لتلك الأعلى في الترتيب. دافع عن هذا واعتبره مبرراً للعبودية.

على الجانب الآخر، لم يحسب تیدمان متوسط القياسات في كل عرقٍ. ركز على أن البيانات تكشف عن توزُّع أوزان الدماغ ضمن مَدَى في داخل كل عرق. اعتبر أن وجود مَدَى لأوزان الدماغ في داخل كل عرق دليل على أن كل الأعراق متساوية. استخدم نتائجه ليعلن أنه من الظلم اعتبار عرق أرقى من الآخر، ونَدَّ بتجارة العبيد، واعتبرها أمراً مقيتاً.

تلقي هذه المقارنة بين منهجيْ مورتون وتیدمان لتحليل البيانات وتفسيرها الضوء على الحاجة الدائمة إلى القيام بخيارات عند إجراء

(1) انظر Mitchell (2018)

الأبحاث. تلقي الضوء كذلك على مقدار الاختلاف في طرق بحث أمرٍ ما بناءً على قيم الباحثين ودوافعهم. سعى مورتون إلى إقرار العنصرية، وسعى تيدمان إلى التخلص منها.

توليف الطبيعة والتنشئة

تقدّمت كثيراً كذلك مناهج البحث عن الإسهام الجيني في الذكاء منذ مزاعم فرانسيس جالتون في القرن التاسع عشر بخصوص قابلية انتقال الذكاء بالوراثة (انظر الفصل الثاني). وقابلية الانتقال بالوراثة heritability هي نسبة التنوع التي تتسبّب فيها الجينات فيما يتعلّق بسمةٍ ما في جماعة سكانية ما. يعتبر تحليل السمة المعقدة في كامل الجينوم genome-wide complex trait analysis (GCTA) منهجية منهجيات القرن الحادي والعشرين، يمكنها مقارنة الذي إن إيه مباشرةً بين الأفراد⁽¹⁾. دعمَت نتائج تحليل السمة المعقدة في كامل الجينوم الاتجاهاتِ نفسها التي وجدناها خلال المساعي البحثية السابقة التي اعتمدت على منهجية دراسة أزواج التوائم من أجل محاولة التثبت من المقدار الذي يُورّث به الذكاء.

قارنت دراسات التوائم التشابه في الذكاء بين التوائم المتماثلة، والتوائم غير المتماثلة أو المتآخية، إذ يتشارك التوأم المتماثلان الذي إن إيه الخاص بهما كلُّه، في حين يتشارك التوأمان غير المتماثلين أو المتآخيين نصفَ الذي إن إيه الخاص بهما فقط. وجدت هذه الدراسات أن الترابط correlation في معامل الذكاء أعلى بين التوائم المتماثلة (أعلى من 0.80) مقارنة بالتوائم المتآخية (حوالي 0.60)⁽²⁾. أوضحت هذه الدراسات كذلك أن البيئات المنزليّة المشتركة، بالإضافة

(1) Ritchie (2015)

(2) Haier (2017)

إلى البيئات غير المشتركة (المؤثّرات خارج المنزل)، يتوقّف تأثيرها على معامل الذكاء بدرجة كبيرة بعد سنّ الثامنة عشرة. يرجع هذا إلى أنه فور أن يكبر الأطفال ويقدروا على الاختيار، يختاروا مستوى التعقيد الذي يفضّلونه وفق المستوى الچيني لذكائهم (يشبه ذلك بعض الشيء المثال المضروب في الفصل الأول عن اختيار الناس مستوى التعقيد المفضّل لهم في أثناء التسوق). يبدو هذا مُريًّاً، لكنه يعني أن قابلية الانتقال بالوراثة فيما يخصُّ الذكاء تزداد حتى مرحلة البلوغ، وعند هذه النقطة تصير قابلية الانتقال بالوراثة فيما يخصُّه 80%. يجعل هذا الذكاء أحدَ أكثر الصفات البشرية القابلة للانتقال بالوراثة.

على الرغم من أن الذكاء يتأثّر كثيراً بالجينات، ثبت أن محاولة العثور على الجينات المتعلقة بالذكاء ليست مسألةً سهلةً أبداً. لقد حدّدنا جينات تتدخل في الذكاء بالفعل، لكنه صار من الواضح أن الذكاء متعددُ الجينات. يعني هذا أن جينات عديدة تتدخل في الذكاء، ولكلٌ منها تأثير صغير⁽¹⁾.

على مرّ العقود، أجريت محاولات عديدة لزيادة الذكاء عن طريق تدخلات بيئية؛ مثل تشغيل وزارت للأطفال الصغار كما ذكرنا في الفصل الثالث. لم تُظهر هذه التدخلات أي تأثير على معامل الذكاء، أو لم تُظهر تأثيراً كبيراً أو دائماً⁽²⁾. يتمثّل أحد أمثلة التدخلات البيئية المرگزة والمكلفة جدًا التي أجريت على نطاقٍ واسعٍ بمحاولات رفع معامل الذكاء في البرنامج التعليمي السابق هيد ستارت Head Start، الذي بدأ في الولايات المتحدة الأمريكية في ستينيات القرن العشرين. سجّل هذا البرنامج -وبرنامج آخر شبيهه- ارتفاعاً في معامل الذكاء يقدر بنقاط قليلة فقط، سرعان ما تراجع هذا الارتفاع مرة

(1) Haier (2017)

(2) من الممكن العثور على مراجعة شاملة لهذا في (2017) Haier

أخرى بعد انتهاء التَّدْخُل⁽¹⁾. اصطلاح على تسمية هذا "تأثير التلاشي"
⁽²⁾fade-out effect

أسفرت محاولات زيادة معامل الذكاء عن طريق الغذاء -على سبيل المثال، عن طريق الرضاعة الطبيعية ومكمّلات أوميجا 3 الغذائية- عن حملات إعلامية حماسية ونتائج متضاربة⁽³⁾. أثَرَت تدخلات أخرى، اشتغلت على أدوية المقويات والتحفيز غير الاختراقي للدماغ باستخدام المجالات المغناطيسية والتيارات الكهربية والليزر البارد، تأثِيرًا محدودًا، قصير المدى على الأداء، لكنها فشلت في زيادة معامل الذكاء. الأدَهُى من ذلك، أن بعض هذه التَّدْخُلَات أدَتَ إلى خفض الأداء في اختبار معامل الذكاء⁽⁴⁾; إذ يحمل تجريب تدخلات جديدة مخاطرة.

بينما حامت الشكوك في الغالب حول محاولات زيادة معامل الذكاء،اكتُشفت في أثناء الرحلة حقائق عديدة لا تقبل الجدل بخصوص ما يدمّر الذكاء. فيما يتعلق بالغذاء، وجدنا حقيقة واحدة واضحة: يؤدي نقص اليود إلى خفض معامل الذكاء بشدة⁽⁵⁾. يقلل أي شيء يضرُّ بنية الدماغ أو وظيفته مُعَامِلَ الذكاء. يتضمَّن هذا إصابات الرأس وبعض الأمراض والسموم البيئية وتعاطي المخدرات. تتضمَّن معوقات التطور العقلي للأجيَنة تناول الأم للكحوليات في أثناء الحمل، وسوء التغذية لفترة طويلة، والتَّعرُض للرصاص في الجو⁽⁶⁾. يرتبط ارتفاع الوزن عند الميلاد بالذكاء المرتفع: تميل الأمهات ذات الذكاء المرتفع إلى

(1) Hunt (2011)

(2) Hunt (2011) انظر أيضًا Protzko (2015)

(3) انظر Falck (2020: 44)

(4) انظر Haier (2017)

(5) Bostrom (2014: 44)

(6) Hunt (2011)

الحصول على أطفالٍ وزنُهم مرتفع، ويميل الأطفال ذوو الوزن المرتفع إلى تطوير ذكاء مرتفع؛ لذلك قد تتساءل: هل الوزن عند الميلاد هو ما يصنع الفارق، أم يرجع الأمر إلى مُعامل ذكاء الأم؟

يطرح هذا موضوعاً مهماً آخر فيما يتعلق بالبحث في الذكاء. قد يصعب التمييز بين ما هو موروث وما يتأثر بالبيئة. على سبيل المثال، أوضحت الأبحاث أن أصحاب الوضع الاجتماعي الاقتصادي المرتفع يميلون إلى امتلاك معامل ذكاء مرتفع. يُفسّر هذا في الغالب على أنه يعني أن الدخل المرتفع وأساليب الحياة الجيدة تؤدي إلى ذكاء مرتفع؛ بمعنى آخر: هذا تأثير التنشئة. مع ذلك، صار لدينا بحلول القرن الحادي والعشرين أدلة بحثية لها وزنها، تطرح أن الأمر على نقىض ذلك؛ يرجع إلى تأثير الطبيعة⁽¹⁾. وفق هذه الأبحاث، عندما نجد أن الأطفال الذين يعيشون في عائلات ذات وضع اجتماعي اقتصادي مرتفع يمتلكون معاملات ذكاء مرتفعة، فقد استفاد هؤلاء الأطفال من الذكاء الذي ورثوه چينياً من آبائهم، أكثر من استفادتهم من أساليب الحياة المميزة التي توفرها لهم منازلهم: إن الذكاء هو ما يتسبب في أسلوب الحياة الأفضل، وليس أسلوب الحياة الأفضل هو ما يتسبب في الذكاء.

يفسّر هذا نتائج الأبحاث التي تشير إلى أن بيانات الأطفال المشتركة وغير المشتركة تتوقف عن أن يكون لها تأثير كبير على معامل الذكاء مع الوصول لسن البلوغ. إلا أن الباحثين أوضحوا كذلك أن ذوي معامل الذكاء المرتفع يميلون إلى اختيار أن يقضوا وقتاً أطول في التعليم، وهذا الوقت الأطول الذي يقضونه في التعليم يؤدي في العموم إلى نتائج أفضل⁽²⁾. يُسهل الحصول على دخل أكبر بالتأكيد من الحصول

(1) انظر Hunt (2011); Ritchie (2015); Haier (2017)

(2) Hunt (2011)

على أسلوب أفضل للحياة. يمكننا أن نرى من هذا كيف قد يؤدي الذكاء إلى الحصول على أساليب أفضل للحياة. إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة.

تتأثر وظيفة الواحد ودخله وأسلوب حياته بشدة بما يكتسبه اجتماعياً. ويحدد وجود الثروة (أو غيابها) الفرص الاجتماعية المتاحة، وهكذا تتولّد دوائر ذاتية الاستدامة. على سبيل المثال، للمدارس مثل كلية إيتون الشهيرة (التي ذكرناها في الفصل الثاني) مصاريف مرتفعة للغاية، يجب أن تتحمّلها عائلات الغالبية العظمى من التلاميذ الذين يلتحقون بالمدرسة؛ إذ لا تتوفر المساعدة المالية إلا لنسبة صغيرة من التلاميذ. يعزّزِّ غنى المدرسة وشهرة "علامتها المميزة" من ثقافة الثقة بالذات. يمدُّ الاحتكاك الاجتماعي المتوفّر للتلاميذ بإلمامٍ مُبَكّر بسبل القوة والتأثير. على سبيل المثال، يجد التلاميذ الذين التحقوا بإيتون على فترات زمنية مختلفة على مرّ العقود أنفسهم يشاركون أفراداً من العائلة الملكية البريطانية الفصل؛ إذ تفضّل العائلة الوجيهة البارزة المدرسةَ من أجل تعليم أبنائها. تقع العائلة الملكية البريطانية بالقرب من قمة نظام اجتماعي عمره قرون، تتمتع بكل الفرص المتاحة التي تصاحب امتلاك مثل هذا الموقع في المجتمع. يحصل الأطفال الذين يتعرّضون لهذا النوع من المزايا الاجتماعية والمالية على فوائد طويلة الأمد. يمكن لهذه المزايا أن تُسْهَل -على سبيل المثال- طريق هؤلاء التلاميذ نحو تقدُّم مناصب قيادية في العالم بكل ثقة: تلقى ما لا يقلُّ عن 20 رئيس وزراء للمملكة المتحدة تعليمَهم في إيتون.

من الممكن تحقيق هذا حتى لو كان مستوى ذكاء بعض هؤلاء التلاميذ أقلَّ من الآخرين الذين لم يحصلوا على المزايا، وبالتالي لم يتلقو الثقة أو الشبكات الاجتماعية التي تؤدي بهم إلى القيادة. (لم ينجح رئيس وزراء المملكة المتحدة بوريس جونسون الذي التحق

يُإيّتون في اختبار قبول منسا التي يتطلّب الالتحاق بها أن تكون نتيجة معامل الذكاء في أعلى 2% من السُّكَان).

بالنظر إلى تأثير المزايا والمثالب الاجتماعية على المآلات الحياتية، من المهم النظر إلى الكيفية التي تتشابك بها مع موضوع الذكاء، أو تنفصل عنه. على سبيل المثال، رأينا من قبل في هذا الفصل كيف استهدفت مبادرات مثل برنامج هيد ستارت رفع معامل الذكاء وفشلت في أن يكون لها أي تأثير فعليٌّ على معامل الذكاء. إلا أن لها تأثيراً اجتماعياً إيجابياً: نجحت في كسر دوائر مشكلات المشاركين الاجتماعية والسلوكية وزيادة معدلات دخولهم إلى الجامعة⁽¹⁾.

على الرغم من أنه قد ثبت بشكل عام أنه من الأسهل بالنسبة إلى التأثيرات البيئية أن تُلحق الضرر بالذكاء من أن تعزّز منه، لأن الذكاء يُورث بدرجة كبيرة، للبيئة تأثيرها دائمًا. لا يُورث الذكاء بنسبة 100% أبداً. لكل شخصٍ ما نصطلح على تسميته "مدى الاستجابة"⁽²⁾ reaction range، والمقصود به مدى معامل الذكاء الذي قد يستطيع ذلك الشخص الحصول عليه بالنظر إلى تركيبه الجيني. يعتمد مستوى الذكاء الذي يحققّه الشخص داخل هذا المدى على جودة بيئته. يشير النمط الجيني Genotype إلى التركيب الجيني للشخص ويتعلّق النمط الظاهري phenotype بكيفية تجلّي التركيب الجيني نتيجة لتفاعل بين الجينات والبيئة. لن نستطيع رضيغُ مولود لأبوين ذوي معامل ذكاء مرتفع جدًا ثم عانيا من سوء تغذية طويل أن يصل إلى التعبير الظاهري الكامل لإمكاناته الجينية. ندرس في مجال الإبيجينيات كيف تتفاعل الجينات مع البيئة، وهو موضوع معقد جدًا.

(1) انظر (Hunt 2011)

(2) Hunt (2011: 24)

نظريّة الذكاء التي صمدت على أفضل وجه أمام اختبار الزمن والبحث

يتمثل التصور المفاهيمي البسيط والأنيق الذي أكَّدَت عليه الأبحاث مراراً وتكراراً على مَرَّ العقود في وجود عامل الذكاء العام الذي يؤثُّر في أداء كل المهام الإدراكية الأخرى؛ ما أطلق عليه تشارلز سبيelman في عام 1904 g. تختلف نظريات القياس النفسي المعاصرة للذكاء في كيفية رؤيتها لـ g وعلاقتها بالقدرات الأخرى، سواء تلك العريضة أو تلك الأكثر تحديداً، كما تختلف في عدد فئات القدرات الموجودة، وفي العلاقة التراتبية التي تجمع بينها. مع ذلك، ما تزال أغلب النظريات تقبل بوجود g، كما يفعل أغلب الخبراء⁽¹⁾.

وجدنا العامل g في الكثير من الثقافات البشرية، بل وجدناه في كائنات غير بشرية؛ الرئيسيات والكلاب والفئران⁽²⁾. توضح نتائج أبحاث القرن الحادي والعشرين وعلوم الأعصاب أن العامل g المرتفع "مؤشر إيجابي يدلُّ على درجة عالية من سلامة النظام"⁽³⁾. يبدو أن هذا يدعم فرضية فرانسيس جالتون الأصلية من القرن التاسع عشر التي تذهب إلى أن الذكاء مظهر يدلُّ على الكفاءة العامة للنظام العصبي⁽⁴⁾.

(1) Rindermann et al. (2020)

(2) استشهد به في (38: 38) Warne et al. (2018)

(3) Karpinski et al. (2018)

(4) في (1985) Reynolds & Willson

ثبات الذكاء على مرّ الزمن

في العلم، ظلت بنية الذكاء العام ثابتة تماماً على مرّ الزمن بشكل واضح. وفي الناس، أظهر معامل الذكاء الفردي أنه يظل ثابتاً بشكل عام خلال الطفولة وحتى سن النضوج⁽¹⁾ لكنه يبدأ في الانخفاض في سن أكبر⁽²⁾. يتدهور الذكاء السائل Gf بصورة أكبر من الذكاء المتببور Gc مع التقدُّم في العمر. يتأثر الذكاء السائل بسرعة الاستجابة التي تقلُّ مع ازدياد السن، في حين يترافق الذكاء المتببور على مرّ السنين: قد تبقى المعارف والمهارات التي اكتسبها الشخص - خاصة إذا دعمت بصورة متكررة عن طريق الاستخدام المنتظم - سليمة حتى بلوغ أرذل العمر ما لم تتسبَّب إصابة أو مرض في اختلالها. يتضح هذا، على سبيل المثال، في عازفي البيانو في الفرق الموسيقية الذي يستمرون في الأداء الجيد وهم في التسعينات (مثل آرثر روبنشتاين) بل بعد أن يتعدُّوا المائة من عمرهم (كما في حالة أليس سومر هيرز ودراجا ماتكو فيتش). أتقن هؤلاء العازفون خصائص الأداء في شبابهم وحافظوا عليه معصوماً من الخطأ من خلال العزف المتكرر على مدار عقود.

اختُر ثبات معامل الذكاء في شعوب كاملة كذلك. يشير "تأثير فلين" إلى دراسات أجراها جيمس فلين، أظهرت ارتفاعاً في متوسط نتائج معامل الذكاء في الكثير من الشعوب الغربية خلال القرن العشرين⁽³⁾. إلا أن عكس ذلك قد سُجل خلال القرن الحادي والعشرين، وهو ما اصطُلح على تسميته "تأثير فلين السلبي"⁽⁴⁾. عَزَوا الارتفاع بصورة كبيرة إلى أن أدنى نتائج معامل الذكاء في تلك الشعوب قد تحسّنت من

(1) Schneider et al. (2014)

(2) Deary et al. (2009)

(3) Flynn (1984, 1987)

(4) Kanazawa (2012)

خلال تحسين تغذية وصحة الأطفال والأجهزة⁽¹⁾. عَزَّزوا الانعكاس اللاحق بذلك إلى أن المكاسب التي قد نحصل عليها بهذه الطريقة بلغت أقصاها، وصار واضحًا الآن ما أُطْلِق عليه تأثير الخلل الجيني - dysgenic impact، والمقصود به تأثير إنجاب ذوي معامل الذكاء المرتفع لعدد أقل من الأطفال، أو عدم إنجابهم على الإطلاق⁽²⁾.

التَّنْوُعُ الْعَصْبِي

تكفي البيانات التي تراكمت في خلال القرن الحادي والعشرين نتيجة تصوير الدماغ وتحليل الذي إن إيه، وأكثر من مائة عام من أدلة القياس النفسي، للإقرار بشكل قاطع بوجود اختلافات في الذكاء بين البشر، تتأثر بالجينات وتتأسس على البيولوجيا العصبية. وهذا هو الموضع الذي أرحب في استحضار مصطلح "التَّنْوُعُ الْعَصْبِي" neuro diversity فيه، لأنَّه مصطلح يشير إلى كيف تختلف أدمنتنا بشكل كبير من واحد للأخر (neuro diversity).

غالبًا ما يُستخدم مصطلح التنوع العصبي للإشارة إلى طرق شاذة للأداء العصبي مثل تلك الموجودة في عُسر القراءة والتوحد. ثار جدل كذلك عمّا إذا كان من الممكن تطبيق المصطلح على حالات أخرى - مثلها كمثل عُسر القراءة والتوحد - اعتُبرت مرضيَّة في العادة، مثل الاضطراب ثنائي القطب. أثيرةت مسألة مهمَّة بخصوص مفهوم التنوع العصبي، إذ لا يجب أن يُستخدم للتقليل من التحديات التي يواجهها أصحاب الحالات الشاذة والدعم الخاص الذي يحتاجون إليه لمساعدتهم على التصرف.

(1) Lynn (1998)

(2) Meisenberg (2010)

بينما أرحب في التَّمُسُك بِموقف منفتح تجاه التفكير النقدي حول كيفية استخدام مفهوم التنوع العصبي، ما زلت أودُّ عرض خُججي من أجل وضع الاختلافات في مستويات الذكاء بين الأفراد تحت لافتة التنوُّع العصبي. وهذا لأن الأبحاث أوضحت أن التنوعات في مستويات الذكاء تتوافق مع اختلافات في بنية الدماغ ووظيفته⁽¹⁾. إذاً أعلنت الاختلافات في الذكاء وقُبِّلت واعتبرت أوجهًا للتنوُّع العصبي، فربما تعرَّف بصورة أكثر افتتاحًا وتُناقش ونتعامل معها بنجاح. قد يساعد هذا في التواصل بخصوص هذا الملمح البشري لهم من أجل إيقاف قميْه وإثقاله بوصلة النظريات البالية للحقب السابقة. لا يملك الواحد أي سيطرة بأي شكل على "مدى الاستجابة" الفردي الخاص به؛ لذلك يعُدُّ التعاطف واحترام التداعيات النفسية والاجتماعية والاقتصادية للطيف الكامل لكافة أشكال مدى الاستجابة تقدُّمًا مجتمعيًّا.

إعادة النظر في الذكاء العاطفي

وفقاً لبحث جديد، قد لا يمتلك الناس دائمًا تحكُّماً مثل الذي كنَّا نظنه سابقاً في مقدار الذكاء العاطفي الذي يُظهرونـه.رأينا في الفصل السابق، كيف بدأ الجزم بالذكاء العاطفي في عصر الإنقاص من القيمة، وكيف انتُقد أصحاب معامل الذكاء المرتفع للغاية، إذ لا يبدو أنهم يمتلكون ما يكفي من الذكاء العاطفي، لأن هذا الوضع من صُنعِهم. بدأت الدراسات في 2016⁽²⁾ و2018⁽³⁾ في التأسيس لرابط بين معامل الذكاء المرتفع والتَّوحُّد.

(1) انظر Haier (2017)

(2) Crespi (2016)

(3) Karpinski et al. (2018)

يُعدُّ التَّوْحِيد حالة من حالات التَّنْوُع العصبي؛ ما يعني أن الدماغ مهيأً في المتجوّدين بصورة مختلفة عما عليه الحال في غالبية الناس. يعاني المتجوّدون من صعوبات في الخيال والتفسير والتفاعل والتواصل الاجتماعي. ارتبط التوحد عادة بمعامل الذكاء المنخفض، وعادة ما يُحجب في ذوي الذكاء المرتفع لأنهم يستعملون قدراتهم الأخرى للتعويض. إلا أن الآخرين العاديين عصبياً يعتبرون المصابين بالتوحد "مختلفين"؛ إذ يcabدون في المواقف الاجتماعية (بما في ذلك تطوير علاقات الصداقة والعمل والحب). في عصر التكامل، من الممكن تحسين جودة حياة هؤلاء الأفراد بشكل هائل، وتعزيز إسهامهم المجتمعي، إذا ازداد الفهم العام للتَّوْحِيد وأتيح المزيد من الدعم للمتجوّدين.

كيف بدأ عصر التكامل

قد نعتبر أن المشهد قد أعيدَ جيداً لحقبة توليف أو تكامل فيما يتعلق بالذكاء، نظراً إلى شيعه أدلة على تزايد التسامح تجاه الخصائص البشرية الأخرى مثل العِرق والنوع والجنسانية، والترحيب بها والاشتباك معها في الكثير من مساحات الثقافة الغربية. إلا أنه لم يُسلِّم (بعد) باعتبار الذكاء وجهاً محورياً من أوجه التَّنْوُع البشري.

وُضعت بعض التشريعات في المملكة المتحدة لمنع التمييز فيما يتعلق بمسألة التنوع. على سبيل المثال، يُسمى قانون المساواة الصادر في عام 2010 "الخصائص محمية" التي يُحظر التمييز ضدها في مختلف مناحي الحياة؛ مثل العمل والتعليم وخدمات القطاع العام⁽¹⁾. تلك الخصائص محمية هي: السن والإعاقة وتغيير الجنس والزواج والشراكة المدنية [علاقة بين شخصين تشبه الزواج] والعرق

(1) Equality Act (2010)

والدين أو الاعتقاد والجنس والتوجّه الجنسي. لم يُذَكَّر الذكاء. تعرّف "الإعاقة" في داخل هذا القانون باعتبارها "قصوراً بدنياً أو عقلياً". يعني هذا أن القانون يحمي الذكاء المنخفض جدًا على اعتبار أنه إعاقة. مع ذلك، يبقى الذكاء المرتفع جدًا غير معترف به بوصفه اختلافاً فردياً، له تداعياته اليومية على الأشخاص المتأثرين. رأينا في الفصول السابقة مقدار تغلّل خاصية الذكاء في الخبرة والنشاط البشريين، وكيف عزّزت من سياسات اجتماعية شديدة التأثير، وكيف ترتبط من منظور علمي بالكثير للغاية من المآلات الحياتية؛ لذلك من الممكن أن يُقال إن عدم الاعتراف بالذكاء بوصفه خاصية بشرية في القانون ينْمُ عن الغفلة.

يعتبر مكان العمل مساحة أخرى، يزداد فيها تشجيع التنوّع. في عام 2018 نشرت مؤسسة ماكنزي وشركاؤه للاستشارات الإدارية العالمية تقريراً بعنوان "الإنجاز من خلال التنوّع"⁽¹⁾ Delivering through Diversity يعرض حجّة قوية في صالح الشمول والتنوّع في الشركات والقطاع العام ومؤسسات القطاع الثالث [المؤسسات غير الربحية] حول العالم. أسّس البحث الذي أجرته المؤسسة على ما يزيد عن 1000 شركة في 12 دولة لرابط قوي بين التركيب المتنوّع لفريق العمل والأدوار القيادية والأداء المالي الأفضل للشركة. إلا أنهم عرّفوا التنوّع في الأساس من حيث النوع والإثنية والثقافة، مع بعض الذّكر للحالة الاجتماعية الاقتصادية والتوجّه الجنسي. ومرة أخرى، لا ذكر للذكاء أو للتنوّع العصبي. قد تكون مناقشة هذا مفيدة جدًا إذ وُثّق بشكل جيد أن الأفراد الذين يتمتعون بمعامل ذكاء مرتفع جدًا غالباً لا يُفهمون ولا تُلبّى احتياجاتهم في أماكن العمل؛ ما يؤدّي إلى الصراع ومُعدّلات عالية لتبدل العاملين ونقص العمالة القادرة⁽²⁾.

(1) Hunt et al. (2018)

(2) Falck (2020); Nauta & Ronner (2016); Corten et al. (2006)

أرى أننا بحاجة إلى إضافة التّنّوّع العصبي إلى أطْر التنوع القانوني والمؤسسي.

نظرنا في الكيفية التي تطورت بها اللغة على مَرْأى العصور، خصوصاً فيما يتعلّق بكيفية الإشارة إلى الإعاقة العقلية (الفصل الثاني). نجد دلائل على تطُور اللغة في القرن الحادى والعشرين فيما يتعلّق بإشارتها إلى البراعة العقلية. ذكرت في الفصل السابق كيف استُخدمت كلمات مثل "مهووس بالدراسة" nerd و"مهووس" geek للتَّهُكُم على ذوي الذكاء المرتفع خلال عصر الإنماض من القيمة. عكست منشورات أخرى الأمر نفسه كذلك. على سبيل المثال:

"يواجه الأطفال المهووبون التمييز الذي تحمله كلمات "مهووس!" Geek؛ "مهووس بالدراسة!" Nerd؛ "غريب الأطوار!" Freak؛ "دماغي!" Brainiac. يواجهون النبذ والاستبعاد. يقولون: "لا أشبه أحداً آخر. لست مقبولاً. بي أمر خطاطئ". يشعر الأطفال المهووبون غالباً منذ سنٍ ما قبل المدرسة وفيما بعد أنهم معييون"⁽¹⁾.

يوضّح خبر تفصيلي على موقع منسا الإلكتروني كيف شكلت بوتشيال بلس المملكة المتحدة (المعروفة سابقاً باسم الرابطة الوطنية للأطفال المهووبين National Association for Gifted Children) تكتلاً مع كيدسكيب وكيرز تراست وديفيرستي رول مودلز وجمعية المتّوحدين للعمل على مشروع يُطلق عليه "أن أكون نفسي" لدعم الأطفال الذين يتَّنَمرون بهم في المدرسة بسبب "أنهم مختلفون"⁽²⁾. يستشهدون بفيزيائي الجسيمات چيف فورسو حين قال دعماً لهذا المشروع:

(1) Silverman (2013)

(2) موقع منسا الإلكتروني (n.d.)

قد يجعل الوسم بكلمات "مهووس" و"المزعج المتباهي" clever clogs وفتى المعلم المدلل وغريب الأطوار أو ما هو أسوأ: التّنمر - حيوانات هؤلاء الأطفال أصحاب الإمكانيات الدراسية المرتفعة بائسةً تماماً.

أبلغني الكثير من زبائني ذوي معامل الذكاء المرتفع جداً، وأولئك الذين تُجرى معهم المقابلات البحثية، عن المعاناة التي تعرضوا لها بسبب هذا النوع من الإساءة. مع ذلك، وجدت نفسي في خضم عاصفة إعلامية غير متوقعة في ديسمبر عام 2019 بعد أن أوردوا عنني أنني قلت إن القوانين التي تحمي مجموعات الأقليات الأخرى ضد التمييز يجب أن تتسع لتحمي ذوي الذكاء المرتفع من أن يتعرضوا للتحرش من خلال هذه الإهانات. التقطت المنابر الإعلامية حول العالم هذا التصريح، وتمثّلت الاستجابة الشعبية الرئيسية في قولهم إن هذا سخيف تماماً؛ لأن إطلاق كلمة غريب الأطوار أو مهووس على أحدهم "وسام شرف"، ولم تَعُد هذه الكلمات تحمل أي ازدراء. بل قال لي مُصَفِّفُ الشِّعر وفنِي المكياج في ستوديوهات تليفزيون آي تي في في لندن، وهما يجهزانني في وقت مبكر جداً في الصباح من أجل الظهور في برنامج "صباح الخير يا بريطانيا" لكي أُدلي بحُججٍ في هذا الشأن: إلا أن أطفالنا يظنُّون أنه من اللطيف بالفعل حالياً أن تكون غريب الأطوار أو مهووساً".

إلا أن الناقضات مثيرة للاهتمام. تلقّيت بريداً إلكترونياً يقول: "أيتها الغريبة الأطوار! أيتها المهووسة! أيتها المهووسة غريبة الأطوار!". من الواضح أنهم حاولوا بوضوح إهانتي، إلا أنهم استخدموا من أجل ذلك كلمات، يخبرونني أنها لم تَعُد مُهينة. أما أمرح التعليقات فكان "What the Falck?" (ما هذه البداءة؟) و "That Dr Falck should just Falck off" فقط) [من الواضح أن صاحب التعليق يلعب على التشابه بين اسم

فالك Falck مؤلفة الكتاب وكلمة fuck التي تحمل إهانة بذئبة]. لكنني تساءلت، إذا كان اقتراحِي سخيفاً جدّاً؛ لماذا جذب الكثير من الانتباه؟ وأثار غضباً شديداً؟ بل جعل الصفحة الأمامية لواحدة من الجرائد الصفراء تكتب هازئة: "الأطفال غريبو الأطوار البَكَاؤون يريدون أن يضعوا الظرفاء في السجن"⁽¹⁾. الآن أعرف شعورَ من يَعلق في خَضمَ تحُولٍ للنموذج، حيث تدور وتصادم معانٍ جديدة مرتبطة بالكلمات، وتتوارد أساليب ناشئة لاحترام شيء ما إلى جوار أحكام مسبقة مستمرة لم يتم التتحقق منها ضد الشيء نفسه. يقرُّ كتاب ستيف سيلبرمان "القبائل العصبية" Neurotribes الصادر عام 2015 بهذا التحُول في النموذج، كُتب فيه: "كُبرُ الأطفال الذين تمُروا عليهم في السابق بكلمات مثل غريب الأطوار، ودماغ، وأصبحوا معماريّي مستقبلنا"⁽²⁾. إنني أجعل من عام 2015 عام التعبير عن بداية عصر التكامل، إذ بدا أن المنشورات التي تحمل هذا المنظور الجديد قد استجمعت زخمها ابتداء من عام 2015 وفيما يليه من أعوام. إنه العام الذي تلى نقطة التحُول في عام 2014 التي عرضناها في الفصل السابق، واعتبرناها الحدّ الفاصل لبداية التحُول بعيداً عن عصر الإنقاذه من القيمة.

على الرغم من أن الذكاء غير مُعترف به في الأُطْر والقوانين التي ذكرناها سابقاً، إلا أنه وجد اعترافاً به وفق أحد الأساليب المميزة للقرن الحادي والعشرين. مع انفجار تعبيرات جديدة عن النوع والجنسانية في هذه الحقبة، حُددت جنسانية كاملة تمركز حول الذكاء. إذا كان توجُّهك أن تنجذب جنسياً إلى شخص ما بسبب ذكائه ولا شيء غير ذكائه، اصطلاح على تسمية هذا التَّوجُّه الانجذاب إلى العقل sapiosexual. هل كنت تعرف هذا؟

(1) Caven (2019)

(2) Silberman (2015: 3)

السيكولوجيا الكامنة خلف عصر التكامل

في حالات الانقسام والنزاع بين الأشخاص تنتاب أغلبنا رغبةً في الخروج من التلاؤن بشكل من أشكال الفهم والإحساس بالتناغم المتبادل. يرتكز الحافز نحو تكامل وجهات النظر المتعارضة على هذه الرغبة. على سبيل المثال، لو تأملت في خلاف صغير بينك وبين صديق أو زميل، فور أن يُنفَسُ الحزبان عن غضبهما ويُعبَّران عن عدوانيتهما، من الطبيعي أن يبدأ في الانتباه إلى تأثير العدوانية المدمر. ببدأ مع انتباهنا لذلك الاهتمام بالخطوات التي قد نقوم بها لإصلاح ذات البين؛ لذلك فالحافز نحو التكامل هو سيكولوجية رغبتنا في تجاوز النزاعات والانقسامات، بحثاً عن الفهم وتحقيقاً للتناغم.

ينشأ هذا الحافز في أثناء نمو الأطفال نتيجة ازدياد النضج؛ القدرة على الانتباه لتأثير أفعالنا والرغبة في القيام بإصلاحات. إنه ما اصطلح طبيب الأطفال والمحلل النفسي دونالد وينيكات على تسميته "القدرة على الاكتراط" capacity for concern⁽¹⁾. ببساطة يحلُّ اكتراطنا لأحدنا الآخر محلُّ الاستسلام لانتقاد الآخرين والتقطيع البدائي إلى جيدين (أنا/ نحن) في مقابل سينيين (أنتَ/ أنتُم / هم). مع ازدياد النضج النفسي يمكننا أن نبدأ في أن نرى أن الجيد والسيئ كليهما موجودان في كل الأفراد، وكل الاتجاهات وكل الأمور. بدلاً من أن يدفعنا ذنب التمييز ضد أحد الأشياء (الذكاء المنخفض) إلى التمييز ضد نقيضه (الذكاء المرتفع)، يمكننا الآن تقييم الضَّرَر الذي حدث والإصلاح عن طريق الاكتراط بذوي الذكاء المنخفض وذوي الذكاء المرتفع كليهما. وعدم التمييز ضد أيِّ منها؛ إنها حقبة جديدة مستنيرة لإنتهاء التمييز.

كان عمل المحللة النفسية ميلاني كلاين سابقاً لعمل وينيكات، وحمل التَّبَصُّر المهم نفسه، إلا أنها شرحته بمصطلحات أغرب. حَدَّدت

(1) Winnicott (1963)

كلاين مركزين أساسيين، قد يشغلهما أيٌ منا في أوقات مختلفة. إلا وهما مركز "البارانيي- الفصامي" paranoid-schizoid والذى رأته بمثابة طريقة بدائية لمقاربة العالم، تُفسِّح السبيل خلال التطور الصحي لأداء أنسج في صورة مركز "الاكتئابي" depressive.

تعني "فصامي" Schizoid تقسيم الأشياء إلى جيدة في مقابل سيئة، وهو ما يجعلنا بعد ذلك خائفين -أو مرتابين- مما تصورناه سيئاً. يستجلب تكامل الوجهين الإيجابي والسلبي في صورة كلية أعقد الحالة "الاكتئابية" للحداد على فقدان المثل: لا وجود لشخص كامل أو حلٌ كامل، لا وجود إلا لحاجة إلى مواصلة الصراع بعدها وصدق قدر الإمكان مع الواقع أكثر رصانة وتعقيداً.

تعنى فلسفة التعددية بالقدرة على التكامل⁽¹⁾. تتبع التعددية منظوراً يذهب إلى أننا نعيش في عالم مُعَقَّد، تنشأ عن الكثير من العوامل الشخصية والسياسية والثقافية واللغوية والاجتماعية العديد من الاحتياجات والتفضيلات المختلفة. لا تدافع التعددية عن نبذ رفض التنوع، ولا تكتفي بالتسامح معه فقط كذلك. بدلاً من ذلك، تشجع الدعوة إلى تنوع فعال، يكشف عن سلوك منفتح، وممارسة للانفتاح، وفضول يسعى إلى الاشتباك مع التنوع والترحيب به.

من المهم الانتباه إلى أن القدرة على اتخاذ هذا الموقف تنبع من أن تكون في حالٍ تشعر فيه بأنك نفسك آمن ومحميٌّ (تذكّر "القاعدة الآمنة" لبولبي، ذكرناها في الفصل الثاني)، ومعك موارد تكفي للوفاء باحتياجاتك. أنشأ عالم النفس الأمريكي أبراهام ماسلو الرائد فيما أطلق عليه حركة الإمكانيات البشرية، نموذجاً يُصوّر "هرم الاحتياجات" hierarchy of needs⁽²⁾. يُوضّح أنه لو لم تلبِ احتياجاتنا

(1) McAteer, D. (2010: 6)

(2) Maslow (1943)

الأساسية (ابتداء من الطعام والمأوى)، لا يمكننا أن نولي انتباهاً للأمور الأخرى. لا نستطيع الترحيب بالآخرين إذا لم نطمئن إلى أنهم لن يمثلوا تهديداً لنا.

بعد أن ناقشنا كيف بدأ عصر التكامل، يستكشف الفصل التالي التداعيات التي قد تنتج عن تنفيذ هذه المقاربة للذكاء في مختلف السياقات التطبيقية التي تمثل جزءاً من حياتنا اليومية.

5

الذكاء (البشري) التطبيقي

يتعرّض هذا الفصل للكيفية التي جرى التعامل بها مع ظاهرة الذكاء البشري (لا الاصطناعي) في السياقات التطبيقية المختلفة، ناظرين إلى الأوساط التعليمية والمهنية والطبية والقانونية. تقابل هذه الأوساط التصنيمات الخاصة في مجال علم النفس، علم النفس التعليمي وعلم النفس المهني / المؤسسي وعلم النفس الإكلينيكي وعلم النفس الشرعي على الترتيب. أوضحت أنني أشير إلى الذكاء البشري لأن واحدةً من علامات العصر الملفتة للنظر النشر والحديث المتزايد للغاية حالياً عن تطبيقات وتداعيات الذكاء الاصطناعي على مُعامل الذكاء.

أناقش - في توسيعٍ - الوضع الراهن للذكاء البشري في هذه السياقات التطبيقية، موضحاً كيف تتصل العصور الثلاثة المرسومة في الفصول السابقة بهذه السياقات؛ بمعنى آخر: أين نحن الآن بالنظر إلى أين كنّا وأين قد نذهب لاحقاً؟ سوف تُطرح الأسئلة عن الكيفية التي قد تتأثّر الممارسة بها إذا ما اعترفنا بالطيف الكامل للذكاء البشري

واستجينا له بانفتاح وحساسية في هذه السياقات. كيف قد يbedo
عصر التفكير التكاملـي -احتضان التنوع العصبي- في كل وسط من
هذه الأوساط المختلفة؟

البداية بقصتين لحالتين

تُخبرك سيدة تعرفها من العمل أن ابنة أختها ريتا، في المستشفى،
تجري عملية. تسأّلها في آخر الأسبوع عن تعافيها بعد الجراحة.
تقول لك زميلة العمل، في الحقيقة، لم تكن عملية، إلا أنه توجّب
عليهم أن يخدرّوا ريتا لكي يفحصوا حلقها. بدا أنها تعاني من عدوٍ،
ولكن بالرغم من وجود ثلاثة من أفراد العائلة معها، لم يستطعوا أن
 يجعلوّها تسمح للطبيب بالاقتراب منها. تتحمّر من أن طفلة في هذه
السّن حتّاج إلى دخول المستشفى لكي تقوم بفحص روتيني للحلق.

تُخبرك صديقة أن عليها مرّة أخرى أن تصطحب أباها كارل صاحب
الواحد والتسعين عاماً، الذي يعاني من الشلل الرّعاش إلى طبيبة
الأمراض العصبية الخاصة به، لأن التغيير الأخير في أدويته تسبّب له
مرّة أخرى في أعراض صعبة جدّاً. تعرّض على مدار السنتين الأخيرتين
للكثير من النوبات التي تشبه هذه النوبة، صاحبت تلك النوبات
محاولة طبية الأمراض العصبية ضبط الأدوية بشكل صحيح، عانى
كارل خلال النوبات من أنواع كثيرة من الإعاقات الجسدية المفجعة
وتشوّش الوعي والهلوسة والسقوط. تبلغك صديقتك أن طيبة الأمراض
العصبية قالت لها أخيراً خلال موعدهما معها هذا الأسبوع: "أعتقد
أنني استنتجت ما يجري عن طريق التجربة والخطأ. أظن أن كارل
حسّاس جدّاً للأدوية، وأحتاج فعلياً إلى أن أعطيه جرعات أقل كثيراً
من المعتاد". تشعر بالسوء تجاه صديقتك وأبيها بسبب ما يمرّان به.

بينما تتفاعل مع هذين الموقفين، ما احتمال أن تفكر في أن للذكاء أي علاقة بما يحدث؟ ما مدى استعداد المهنيين لأخذ الذكاء في الاعتبار؟ ما معوقات هذا التي تحتاج إلى التفكير فيها أو الحديث في شأنها؟

إنهم قصتان حياتيتان واقعيتان (مع تغيير الأسماء). تعاني ريتا من إعاقة عقلية. أما كارل فعضو في منسا، الجمعية الدولية لأصحاب معامل الذكاء المرتفع. إذا عرفت بهاتين الحقيقتين، هل تظنُ أنهما على صلةٍ بالكيفية التي يتصرف بها الشخص أو ما قد يحتاجه؟ يتضح من هذين المثالين أنه ثمة افتراضات بخصوص ما نتوقعه من طفل في سنٍ معينة أو بخصوص جرعة الدواء الصحيحة لشخص يعاني من حالة صحية ما.

عندما سمعت بشأن سلوك ريتا والتخيير الذي تحتاج إليه، أربك هذا افتراضاتك عن مدى التعاون المتوقع من طفلة في التاسعة من عمرها وعن الأشياء الالزمة لفحص الحلق. إذا عرفت أنها تعاني من إعاقة عقلية، فسوف تكون من فورك قادرًا على الفهم والتعاطف ولن تعاني من الحيرة. لكنك بالرغم من عملك مع هذه الزميلة لسنوات عديدة ومن أنها ذكرت ابنة أختها عدداً من المرات، لم تذكر أبداً من قبل أنها تعاني من إعاقة عقلية. في هذه المرة، قالت في البداية إن ريتا ستُجري عملية. لم تخبرك بحقيقة الموقف إلا في وقت متاخر. عندما تحدثت عن ابنة أختها في حوار اجتماعي، استبعدت معلومات وثيقة الصلة بالموضوع، كانت ستساعد على الفهم.

أما في حالة كارل، فلم يذكر أحدهم لطبيعة الأمراض العصبية أنه عضو في منسا. ربما حتى لو ذُكر هذا، ما وجدته طبيعة الأمراض العصبية على صلةٍ بالأمر. إلا أن ما نعرفه (الآن) عن معامل الذكاء المرتفع للغاية أنه يرتبط بالكفاءة العصبية والحساسية المرتفعة (وطول العمر؛ لذلك فعمر كارل المتقدم -الذي يزيد عن متوسط

العمر في البشر - دليل). لو انتبهت طبيعة الأمراض العصبية لعامل ذكاء كارل المرتفع للغاية وصلته الوثيقة بالأمر، لربما حاولت تجريب جرعات أصغر كثيراً من البداية، ولربما منع ذلك سنتين من معاناة كارل وأحبابه. إلا أن أصحاب الذكاء المرتفع يجيدون تماماً خلال التفاعلات الاجتماعية استبعاد أي إشارة لحقائق أو خبرات على علاقة بعامل ذكائهم المرتفع.

حينما كتمت عائلة ريتا معلومات عن إعاقتها العقلية، أظهرت إرث عصر إضفاء المثالية. يرغبون في تجنب التمييز المتوقع ضد الذكاء المنخفض. عندما لم يكشف كارل وعائلته عن عضويته في منسا، فذلك راجع إلى تأثيرهم بإرث عصر الإنقاذه من القيمة. يرغبون في تجنب التمييز المتوقع ضد الذكاء المرتفع. هل من الممكن أن تصبح هذه السلوكيات والمخاوف المتعلقة بها شيئاً من الماضي؟ هل من الممكن أن يصبح الذكاء سمةً بشرية، نعرف بها في افتتاح، ونأخذ صلته الوثيقة بالمواقف الحياتية اليومية في الحسبان، مصحوبة بفهم وتعاطف ومن دون تمييز؟ نبدأ بأنه لا يمكن أن يعرف الواحد بالصلة الوثيقة لهذه المعلومات إذا لم يتلقَّ أبداً تعليماً بشأن الذكاء. ما حال التعليم الحالي فيما يتعلق بالذكاء؟

تعليم موضوع الذكاء (البشيري)

كما ذكرنا في الفصل الثالث، توانلت الجامعات عن تعليم موضوع الذكاء خلال عصر الإنقاذه من القيمة، بل قلَّ المحتوى المتعلق بالذكاء في الكتب المرجعية من حيث الحجم والأهمية. حلَّت دراسة أُجريت في عام 2018 المحتوى المتبقى في تلك الكتب⁽¹⁾. فحصت الدراسة 29

(1) Warne et al. (2018)

كتاباً مرجعياً من بين الكتب المرجعية التي يُطلق عليها كتب علم النفس التمهيدية الأكثر شعبية في الولايات المتحدة الأمريكية. وجدت أن غالبيتها (79%) تحتوي على إفادات غير دقيقة ومغالطات منطقية فيما يتعلق بالذكاء. نجد أن أحد أمثلة ذلك الاستشهاد بحقيقة أن البشر متشابهون چينياً بنسبة 99.5% في المتوسط على الأقل للتدليل على انعدام الاختلافات الفعلية بيننا⁽¹⁾. وهذا هو توضيح جيد لماذا تُعدُّ تلك العبارة مغالطة:

تناسل كل الكلاب الآلية مختلفة عن بعضها البعض بسبب 0.15% فقط من چيناتها؛ وهي درجة أقل بكثير من درجة التنوع الچيني في البشر. منطق [هذه المغالطة]، لا تهم سلالة كلب ما بالنسبة إلى استخدام مالكه لأن مثل هذه الاختلافات الچينية البسيطة بلا تأثير. لذلك، يمكن لكلب البودل أن يسحب الزلاجات ولكلب البجَّ أن يكون كلباً بوليسياً عظيماً⁽²⁾.

وجدت دراسة الكتب المرجعية أفكاراً رئيسية معينة في تلك الكتب؛ وهي: المغالاة في حجم التأثيرات البيئية على الذكاء، التقليل من أهمية الفروق الفردية، طرح أن اختبارات الذكاء تغبن تنوع المتقدمين للاختبار. تعكس هذه الانحيازات الثلاثة جميعها منظور عصر الإنقاوص من القيمة، وتناقض الدليل العلمي الذي رُسخ جيداً بحلول القرن الحادى والعشرين. يعني ذلك أن الطلاب الذين قرءوا وتعلّموا من هذه الكتب المرجعية سيحتفظون بمفاهيم مغلوطة عن الذكاء البشري و المجال أبحاث الذكاء. يؤثّر هذا في قرابة 106 مليون طالب سنوياً، يلتحقون بحلقات دراسية تمهيدية لدراسة علم النفس في الولايات المتحدة الأمريكية.

(1) Gottfredson (2009)

(2) Warne et al. (2018: 41)

لهذه المفاهيم المغلوطة تأثير دائم، إذ لا يتعرض طلاب الدراسات التمهيدية لعلم النفس إلى موضوع الذكاء مرة أخرى: تقدم أكثر من 99% من مؤسسات التعليم العالي حلقة دراسية تمهيدية في علم النفس، ولكن أقل من 10% من كل أقسام علم النفس تقدم حلقة دراسية عن الذكاء كجزء من مقرر طلابها الجامعيين⁽¹⁾. يرجع هذا إلى أن جمعية علم النفس الأمريكية American Psychological As- sociation (APA) توصي بأن الذكاء يجب أن تغطيه حلقات علم النفس التمهيدية، ولكنه موضوع غير مُتطلب في الحلقات الدراسية الجامعية⁽²⁾. في المملكة المتحدة، تتبع حلقات علم النفس الدراسية التي تعتمدتها جمعية علم النفس البريطانية British Psychologi cal Society (BPS) دليل المقررات الذي أطلقته وكالة ضمان جودة التعليم العالي Quality Assurance Agency for Higher Education Subject Bench- mark Statement: Psychology⁽³⁾. يذكر هذا البيان أنه لا يقصد إلى أن يكون إلزاميًّا، وبالتالي قد يختلف شارحو المقرر في كيفية تنفيذه. يتضمن الذكاء بوصفه موضوعًا مصنفًا في فئة "الاختلافات الفردية". تحدث مع شارحين للمقرر، وصلوا من البيان إلى أنه ليس مطلوبًا في موضوع الذكاء سوى تعليم اختبار الذكاء، ويغطون ذلك عن طريق إلقاء محاضرة واحدة فقط عن الذكاء في كل حلقة دراسية لعلم النفس.

هكذا نجد أن الاهتمام الممنوح لموضوع الذكاء في تدريس علم النفس ضئيل جدًّا. إلا أن الذكاء موضوع حاضر في علم النفس كله، قادر على التبؤ بدرجة عالية بمسارات البشر في مساحات كثيرة، مثل

(1) استُشهد به في Warne et al. (2018)

(2) Warne et al. (2018)

(3) QAA (2019)

الإنجاز الأكاديمي والكفاءة المهنية والأداء العسكري⁽¹⁾. إذن لا منطق لإهماله في هذا السياق، ولكن للأمر منطقه من حيث أنه يرجع إلى إرث الضرر الذي سببه عصر إضفاء المثالية، متبعاً بردود الفعل ضده خلال عصر الإنقاص من القيمة. من الممكن التعامل مع هذا الأمر بشكل مفيد في عصر التكامل. حددت جمعية علم النفس الأمريكية خمسة أعمدة يجب أن تشتمل أساس أي حلقة دراسية تمهيدية في علم النفس؛ وهي: علم النفس البيولوجي، علم النفس الإدراكي، علم النفس التطوري، علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الشخصية، الصحة النفسية والجسدية⁽²⁾. وضعوا الذكاء ضمن "علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الشخصية". مع ذلك، آمل أنه صار واضحاً من محتوى هذا الكتاب إلى الآن أن الذكاء يتعدّى عبر كل هذه المساحات، إما أن يتأثر بها أو يؤثر فيها.

أودُّ أن أرى موضوع الذكاء وقد جرى الاشتباك معه بطريقة نفسية اجتماعية وعلاقة بدرجة أكبر. يعني هذا أننا بدلاً من أن نراه وندرسه على اعتبار أنه مجموعة من الحقائق والاكتشافات العلمية المثيرة للفضول ذات التاريخ المُرَوْع، نراه على اعتبار أنه شيء نتأثر جميعاً به ونملك مشاعر نحوه، واستجاباتٍ، ترجع لنا ولعلاقتنا ببعضنا البعض. يمكننا القيام بذلك عن طريق توفير فرص الاشتباك التجريبي مع الموضوع. يعني هذا، على سبيل المثال، دعوة الطلاب ليفكروا ملياً فيه ويناقشو أسئلة على شاكلة نماذج الأسئلة التالية:

هل يمكنك أن تفكّر في ذكري عايشتها، لاحظت فيها أن شخصاً آخر يبدو كأنما يمتلك مستوىً مختلفاً تماماً من القدرات (أعلى أو أقل) بالمقارنة بك؟ في أي ظروف صار هذا واضحاً؟ ما الأفكار والمشاعر التي

Warne et al. (2018) Hunt (2014) (1)
Warne et al. (2018) APA (2014) استشهد به في (2)

أثارها هذا فيك عن ذلك الشخص؟ ما الأفكار والمشاعر التي أثارها هذا فيك عن نفسك؟ بعد أن لاحظت هذا، هل غيرٌ في الطريقة التي تتصرف بها نحو ذلك الشخص؟ كيف؟⁽¹⁾

يطرح استخدام مثل هذه المقاربة أسلوبًا مختلفًا لتدريس الاختلافات الفردية. عندما يربط الطلاب المفاهيم بخبراتهم الخاصة، يصيرون مشتبكين مع تعليمهم بصورة أكثر فعالية ويصيرون أكثر قدرة على تطبيق ما تعلموه في حيواناتهم اليومية. إذا وددنا أن نرى تطور تفكير عصر التكامل وممارساته فيما يتعلق بالذكاء البشري في المجتمع في العموم، فسوف تكون مساعدة الطلاب على تطبيقه في تفكيرهم الشخصي وفي تفاعلاتهم في علاقاتهم ببعضهم البعض نقطة بدء عظيمة.

الذكاء في الأوساط التعليمية الأخرى: المدارس

ابتُكرت أول اختبارات الذكاء من أجل وسط تعليمي: جاءت اختبارات ألفريد بينيه في عام 1904 بناءً على طلب وزير التعليم الفرنسي منه أن يجد طريقة لتحديد الأطفال الذين لا يستطيعون مجاراة النظام المدرسي؛ وبالتالي توجّه الموارد لتلبية احتياجاتهم المختلفة. ظلّ صحيحاً منذ ذلك الوقت أن أي نظام يحاول أن يتوجه بشكل متماثل لمزيج من البشر لن يكون مناسباً لكل فرد بداخل تلك المجموعة؛ بسبب حقيقة أساسية وهي الاختلافات الفردية. نجد أن هذا هو الحال في كل مدرسة في كل بلدٍ تجري فيها محاولة جماعية لتعليم عدد من الدارسين المتنوعين. وكما كان الحال في عام 1904، جرى تركيز الموارد الإضافية دائمًا - وبشكل حصري في الغالب - على أولئك الذين لا يجaron النظام جيداً.

(1) هذه عينة من "توجيهات التأملية"، في Falck (2020).

في المملكة المتحدة سياسة حكومية تتعلق بالإعاقة والاحتياجات التعليمية الخاصة Special Educational Needs and Disabilities (SEND)، توفر الدعم للإعاقة العقلية، لكنها لا تعنى بالبراعة العقلية. عندما سألت بونتشيال بلاس المملكة المتحدة، المؤسسة الخيرية المستقلة الداعمة للشباب ذوي القدرات التعليمية المرتفعة عن السياسة الحالية بخصوص التعامل مع احتياجات الأطفال ذوي معامل الذكاء شديد الارتفاع في المدارس⁽¹⁾:

الإجابة الموجزة عن وضع السياسة الحالية في إنجلترا أنه لا سياسة. لا يذكر إطار عمل الرقابة التعليمية لأوفستيد Ofsted's Education Inspection Framework الذي بدأ تنفيذه في سبتمبر 2019 " أصحاب القدرات المرتفعة للغاية" في كتيب المدارس على الإطلاق (وذلك بعد أن كانوا مذكورين 12 مرة في إطار العمل السابق). عندما سألنا عن هذا قالوا إن المعلمين يجب أن يلبُوا حاجة جميع الجماعات؛ ولذلك لا يدخل إطار العمل في تفاصيل عن الجماعات. باستثناء ذكره المحدد للإعاقة والاحتياجات التعليمية الخاصة SEND (ربما لأنها مسألة لوحية) والمُعوزين (ربما بسبب وجود تمويل لهم). في أواخر عام 2017 أعلنت جوستين جريننج وزيرة التعليم آنذاك عن تمويل مواهب المستقبل Future Talent Fund بقيمة 23 مليون جنيه إسترليني [28 مليون دولار أمريكي] لكي يستخدم لاكتشاف ما يفيد المعوزين ذوي القدرات التعليمية المرتفعة. خُفِض التمويل لاحقاً إلى 18 مليون إسترليني [22 مليون دولار]، ثم الغي تماماً.

توضيحاً لمدى اختلاف الأداء العقلي لشخص له مُعامل ذكاء في المئين الثامن والتسعين والتسعين 98th percentile أو أعلى، أظهرت دراسة أن مثل هؤلاء الطلاب يستطيعون "استيعاب مقرر دراسي مدرسة ثانوية

(1) Howell (2019)

مُدّته عام في ثلاثة أسابيع تقريباً من الدراسة المكثفة⁽¹⁾. تخيل الملل السخيف الذي يعاني منه شخص له تلك المقدرة عندما يجبر علىقضاء سنة بأكملها على شيء يستطيع تعلّمه في أقل من شهر.

تُقرّ المدارس عند وضعها للمقررات الدراسية الأهداف التعليمية التي يجب تحقيقها عند بلوغ عمر زمني معين. إنها مهمتها المؤسسية. من المفهوم أن يجتذب الأفراد الذين لا يُحققون هذه الأهداف انتباهاً خاصّاً، إذ يعيقون المهمة المؤسسية. عادة، لا يجتذب الأطفال الذين يتجاوزون هذه الأهداف بسهولة أيّ توجيه خاص للموارد نحوهم؛ لأنهم لا يشكّلون أي مشكلة بالنسبة لتحقيق المؤسسة مهمتها المؤسسية (إلا إذا صار هؤلاء الأطفال مُخلّين بالنظام وغير ممثلين). يعاني الأطفال ذوو معامل الذكاء المرتفع في المدرسة، ينعزلون ويقلّ تحصيلهم أو ينسحبون من النظام، يتسرّبون بأنفسهم أو يخرجهم آباءهم ويدرسونهم منزلّياً بدلاً من ذلك⁽²⁾.

تواجه أي مؤسسة تقدّم تعليماً جماعياً اختياراً أساسياً بين أن يكون الالتحاق بها انتخابياً (يُنتخب المتقدّمون بناء على تقييم أدائهم الأكاديمي) أو ألا يكون انتخابياً. ولا يزال التساؤل عن كيفية التعامل مع الاختلافات العقلية حاضراً بداخل كل خيار من هذين الخيارين؛ على سبيل المثال: تُحدّد المؤسسة التعليمية المسار أم لا تُحدّد المسار؟ (يعني تحديد المسار Streaming تقسيم مجموعات الطلاب الذين يدرسون موضوعاً معيناً إلى مجموعات فرعية وفق أدائهم في ذلك الموضوع). نجد في أماكن عديدة مقاومة عصر الإنقاص من القيمة للانتخاب أو تحديد المسار بسبب ارتباطهما السلبية بعصر إضفاء المثالية. نجد مسألتين رئيسيتين ترتبطان بهذين الخيارين.

(1) Hunt (2011: 346)

(2) انظر Goodwin & Gustavson (2012)

تتمثل المسألة الأولى في فوائد التنوع في مقابل فوائد التماشل. يحتوي العالم على تنوع عظيم للقدرات العقلية، والطالب الذي يرتاد مدرسة لا تمارس الانتخاب الأكاديمي يتعرض لنطاق عريض من القدرات كما هي في "العالم الواقعي". قد نقول إن تعلم كيفية الاختلاط مع الآخرين المتنوّعين عقلياً والعمل معهم والعثور على طريقك الشخصي بينهم إعداد مهم لاضطلاعك بدورك في "العالم الواقعي". مع ذلك، يحتوي "العالم الواقعي" كذلك على الكثير من الأقسام الفرعية الصناعية والمجتمعية، تمحور حول مستويات خاصة للقدرات. على سبيل المثال، نجد متطلبات عقلية مختلفة للغاية من أجل الالتحاق بشركة للمحاماة عن تلك الازمة للالتحاق بشركة للنظافة المنزليّة، بسبب الحاجات العقلية المختلفة لهاتين المهنتين؛ لذلك قد نذهب إلى أن البيئات التعليمية التي تجمع بشكل انتخابي الدارسين ذوي القدرات المتشابهة معًا تجهز كذلك هؤلاء الدارسين لاضطلاع بدورهم في "العالم الواقعي"، تعدهم جيداً لكي يؤدوا بشكل جيد في القسم الفرعي الذي يناسبهم على أفضل وجه.

قد يؤدي التوفيق بين المهام والقدرات إلى جلب الرضا إلى الأفراد، إذ لا يتوجّب عليهم مكافحة متطلبات، تُلقى على عاتقهم، وتصيبهم بالإحباط لأنها معقدة للغاية بالنسبة لهم، ولا يتوجّب عليهم كذلك أن يعانون من الملل والإحباط لأنه لا تقدّم لهم سوى مهام بسيطة للغاية، لا تحفّزهم أو تتحداهم. عندما يشعر الأفراد بالأمان وتُسدد احتياجاتهم الشخصية، يوفر لهم ذلك أساساً ثابتاً، ينطلق منه كرمهم نحو الآخرين، لأنهم حينها لا ينظرون إلى متطلبات الآخرين واحتياجاتهم باعتبارها تهديداً لرفاهتهم.

تصبح مسألة التعليم الانتخابي في مقابل التعليم اللا انتخابي أمراً مثيراً للجدل عندما يتخذ أحدُ ما أو الآخر قراراً على المستوى الحكومي، ومن ثم يطبقه على الأمة. فرض عصر إضفاء المثالية

نماذج تعليمية انتخابية، وفرض عصر الإنقاص من القيمة نماذج لانتخابية. قد يحفّز عصر التكامل تنوّعاً في التعليم المقدم، وحرية الاختيار وفق ما يفضله الأفراد، وحرية الانتقال بين الأنواع المختلفة وبالتالي لا محظورات في هذا الخصوص، قد تسبّب المراة أو الوصم نتيجة التقسيم إلى مجموعات، ولا حالات من سوء التقسيم، لا يمكن تعديلها.

أمّا الأمر الثاني الذي يتصل بأي تقسيم على أساس القدرات قد يقوم به في الأوساط التعليمية فمتعلّق بكيفية التعامل مع الأوجه النفسية الاجتماعية له. تتمثل مشكلة رئيسية تصاحب أي عملية انتخاب سواء انتخاب الملتحقين بالمدرسة أو تحديد المسار بداخل المدرسة في الكيفية التي يشعر بها الناس بخصوص هذا ويتصرّفون بناء عليه. تسبّب عصر إضفاء المثالية بما لا يفيد؛ إذ ربط الرفعة بالأشخاص الذين يقعون في الشريحة الأكاديمية العليا. تسبّب هذا التمييز الإشكالي كذلك في ربط أولئك الذين يقعون في الشرائح الأكاديمية الدنيا بالضّعفة. (انتقد أحد المؤلفين منح الفرص الإثرائية للطلاب الموهوبين لأن ذلك يهمّل الطلاب الباقيين على اعتبار أنهم "غير موهوبين"⁽¹⁾)

شجّعت السلوكيات والممارسات التي تُفضّل ذوي القدرات المرتفعة من دون تمييز في عصر إضفاء المثالية (انظر الأمثلة في الفصل الثاني). وحدث عكس هذا في عصر الإنقاص من القيمة. يعني هذا أنه لم يُعدّ ابتكار التصورات حول القدرة الفارقة، كل ما حدث أن المدارس بدأت في الزيادة من سَدْ حاجة أولئك الذين ميّز عصر إضفاء المثالية ضدهم عن طريق التمييز ضد أولئك الذين جرى تفضيلهم في عصر إضفاء المثالية. أرى أن عصر التكامل يتعلق بإعادة الابتكار المدروس لذلك، لا

(1) Stobart (2014: 19)

يتظاهر بأننا جمِيعاً متماثلون -يعترف بشكل واقعي بالاختلافات- بل ينهي أساليب الحقب السابقة للتمييز ضد الاختلافات. يتضمن إنهاء هذا التمييز التفكير في ثلاث مساحات رئيسية والتدخل فيها بحرص: الممارسات التعليمية واللغة وسلوكيات الفناء.

بالنسبة إلى الممارسات التعليمية: في أي نموذج للتعليم الجماعي، لا يمكن للواحد أن يهرب من ضرورة أن يمتلك خطة بخصوص المنهج الذي سيُدرّس. يلبي توفير الرعاية الحالي للإعاقة والاحتياجات التعليمية الخاصة SEND متطلبات أولئك الواقعين عند النهاية السُّفلَى لطيف الذكاء، ومن الواضح أننا بحاجة إلى مواصلة توفير الرعاية لهم. إلا أنه من الممكن إدخال تعديلين بسيطين عادلين من أجل توفير الرعاية لنهاية الطيف العليا المهملة، التي تُلْبَى احتياجاتها نادراً. يتمثل التعديل الأول في جعل المستوى التالي من المنهج الموضوع متاحاً لأغلب الدارسين القادرين. أمّا الثاني فالسماح مثل هؤلاء الدارسين بالمزيد من الاستقلالية في دراستهم. إنهم مواءمتران مُبرهَن عليهما^(١). (حدثني ربيكا هويل، مستشار أول التعليم في بوتنشيا بلس المملكة المتحدة، ونحن نتبادل أطراف الحديث في مكاتب المؤسسة بالمبني الواقع في حديقة بلتشلي، عن مثال خيالي لنوع آخر من المواءمات. تشتهر حديقة بلتشلي أنها المكان الذي كسر فيه آلان تورينج ومحللو الشفرات الآخرون شفرة عدو بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية. قالت هويل إننا قد نُبقي الدارسين ذوي القدرات المرتفعة متفاعلين عن طريق إعطائهم المهام المدرسية مشفرة).

ومن حيث اللغة، لا يمكن للواحد أن يهرب من حقيقة أن التَّفُوق سوف يُرى (في المعتاد) باعتباره أمراً إيجابياً ويتحدثون عنه على هذا الأساس. إلا أننا إذا تذَكَّرنا العمليات السيكولوجية للتقسيم التي سبق

(١) انظر (Clynes 2016)

ونظرنا في أمرها، فمن المفيد أن نحذر من استخدام وسم "الجيد" في مقابل "السيئ" وأن نفكّر مليّاً في كيفية تقديم المديح. إذا وجدنا أنفسنا محبطين وخائبي الأمل لأن أحدهم حقّق أقل من المتوقع، قد نأخذ في اعتبارنا أن الأمر ربما ينطوي على إعاقة عقلية. إذا وجدنا أنفسنا متحمّسين جدًا لأن أحدهم حقّق أكثر كثيراً من المتوقّع، فقد يكون من المفيد أن نتذكر أنه من السهل لذوي البراعة العقلية أن يتجاوزوا الأهداف العادلة بكثير، وعندما يكون الأمر سهلاً للغاية بالنسبة لهم، فلن يعتبروه إنجازاً على المستوى الشخصي. إذا غيرنا توقعاتنا المثبتة على المتوسط، يمكننا أن نعتبر أن تجاوز البعض للأهداف المعتادة أمر طبيعي، ومن ثم لا نستقبل هذا على أنه شذوذٌ مفاجئ بل أمر متوقّع؛ وبالتالي نستجيب نحوه بالشكل المناسب حين يحدث.

فيما يتعلّق بسلوك الفناء: يقع الأطفال بسهولة في التقسيم؛ يعاملون بعضهم البعض كأنهم "جيدون" أو "سيئون"، يصفون المثالية على الذين يتفوقون، يُقصون من قيمة الذين يكابدون، ويتهكمون على من يبرز لأي سبب من السببين. إذا انتبهنا مثل هذه السلوكيات، قد نساعد عندما نراها ونتدخل ونُعلّم الاعتناق الإيجابي للتنوع العصبي. قد نساعد الأطفال كذلك ليفهموا أن كل شخص يحتوي على صفات متداخلة شديدة التعقيد، تتجاوز وجهات النظر والأحكام شديدة البساطة للتقسيم إلى "جيد" في مقابل "سيئ".

تبثّق الكيفية التي نُعلّم بها الأطفال ونساعدهم ليفهموا هذه الأمور من الكيفية التي نفهم بها الذكاء ونتعلم عنه في مجتمعنا في العموم. كيف يدرك المعلمون والآباء أنفسهم - الذين يربّون ويعلمون هؤلاء الأطفال - الذكاء ويشعرون تجاهه؟ وكما رأينا من قبل بخصوص تدريس الذكاء في الحلقات الدراسية الجامعية، قد يكون من المفيد كذلك تدريسه والاعتراف به بشكل أكثر انفتاحاً وحساسية بداخل المدارس. من الممكن تفسيره باعتباره تنوعاً عصبياً، جنباً إلى جانب

صور التنوع البشري الأخرى، التي تشتمل بالفعل جزءاً معيارياً في مقرر التعليم الشخصي والاجتماعي والصحي والاقتصادي PSHE.

الذكاء في الأوساط المهنية

أوضحت دراسة للكتب المرجعية في علم النفس المؤسسي organizational psychology أن تلك الكتب تكرّس أقل من أربع فقرات في المتوسط لموضوع الذكاء الإدراكي، على الرغم من أنه ثُبّت أن الذكاء أحد أقوى وسائل التنبؤ بالأداء في العمل، خاصة في الوظائف شديدة التعقيد⁽¹⁾. تختص تلك الكتب بضعف المساحة لموضوع الذكاء العاطفي - كما تورد معلومات أدقّ عنه - على الرغم من أن البحث العلمي لم يُنْتِج أدلةً عن أهميته التنبؤية مثل تلك الأهمية الثابتة للذكاء الإدراكي⁽²⁾. من الواضح أنه انجاز عصر الإنقاص من القيمة، وردة فعله تجاه تشديد عصر إضفاء المثالية على معامل الذكاء. ينطوي عصر التكامل على تشجيع الاعتراف بالدور المهم الذي يلعبه التنوع العصبي في التَّجهُز للوظائف واختيار المتقدم لها والكيفية التي يستجيب بها العاملون تجاه بعضهم البعض وهم في العمل. ويطلب ذلك تغييرًا في كيفية تثمين أنواع العمل المختلفة.

تشترط أغلب الوظائف نوعاً من التَّجهُز لها، من حيث التعليم والتدريب. ثمة حاجة لسنوات كثيرة من الاستعداد عندما تكون الوظيفة معقدة، مثل وظيفة الجراح ورائد الفضاء. يكلّف التعليم والتدريب كثيراً، كيف تعرف أنه استثمار مناسب، وأن الشخص الذي يجري تدريبه سوف يتحقق بتلك الوظيفة؟ هنا تساعدنا مناهج التقييم، وعلى الرغم من أن مثل هذه التقييمات لا يُقال إنها تقيس

(1) استشهد به في (Warne et al. 2018)

(2) استشهد به في (Warne et al. 2018)

الذكاء، إلا أنها تشبه اختبارات الذكاء كثيراً. من الواضح أن الوظائف المختلفة تشتمل على قدرات إدراكية مختلفة؛ يحتاج المحامي إلى قدرة كلامية قوية، وتلزم الخبر الاكتواري ببراعة رياضية، ويجب أن يمتلك الطيار كفاءة مكانية. تقيس تلك الاختبارات هذه القدرات.

كيف تعثر على الشخص المناسب للوظيفة المناسبة؟ مرة أخرى نجد عند التوظيف أن هذه التقييمات مفيدة للغاية لاختيار المتقدم للأسباب نفسها. تسمح لأي شخص بالتقدم لشغل الوظيفة وتوجهه الموظفين للتوفيق المثالي بين المتقدم ومتطلبات الوظيفة. تظهر ضرورة ذلك بشكل خاص حين يتقدم لأدوار وظيفية كثيرة عدد كبير جداً، مثلما يحدث عندما تحتاج دولة إلى تسكين عشرات آلاف المواقع الوظيفية المختلفة من أجل بناء جيش فعال.

يتضمن عصر التكامل توفير الموارد والاستراتيجيات التي تدعم العاملين المتنوعين عصبياً من أجل أن يؤدوا وظائفهم على الوجه الأمثل في جهات العمل، فور أن يشغلوا وظائفهم. قد يساعد فهم التنوع العصبي على قبول الجميع باختلافاتهم الفردية من دون خزي أو انتقاص من الذات أو غطرسة، وقبول اختلافات الآخرين من دون توقعات متدنية للغاية أو مرتفعة للغاية. يتضمن هذا تبادل المعلومات بخصوص الشرائح المختلفة في طيف الذكاء البشري، كيف يتجلى الذكاء وكيف يختلف من شخص لآخر في داخل ثقافة تُشَّمِّن كل الشرائح. قد يحتضن فريق عمل الموارد البشرية HR المُدرب على هذا الأمر هذه الثقافة، وقد يستخدم المدربون لدعم تنفيذ ذلك، لكي يكون الفريق مستعداً لإدراك ما إذا كان للأمور علاقة بالاختلافات العقلية. لا نجد على الإطلاق اعترافاً مباشراً حالياً بالاختلافات العقلية بوصفها فئة من فئات التنوع المحددة الموجودة والمؤثرة. قد يوفر تحديدها والتعلم عنها المwareمات المناسبة الازمة وتنفيذها من أجل الاستجابة لتلك التنوعات.

يعدُّ تغيير الثقافة التي تتعامل مع بعض الوظائف على اعتبار أنها أئمن من وظائف أخرى أمراً هاماً لازماً عند استهداف الجوانب النفسية الاجتماعية لاحتضان التَّنُّوُّع العصبي. إن الوظائف كافة ضرورية في اقتصاد يعمل بكمال فعاليته. لا يمكننا اجتناب استمرار الناس في الإعجاب بالوظائف وفق درجة تَعَقُّدها، لأنها من الطبيعي أن نُعجب بأولئك الذي يُظهِرون مقدرة على القيام بأشياء، لا يستطيع الجميع القيام بها. مع ذلك، يحفِّز تثمين جميع مستويات القدرة وجميع الأساليب المختلفة التي قد نوظفها بها ثقافة، تجعل جميع الأفراد قادرين على الشعور بالفخر بإسهامهم الشخصي. ويشكّل الأفراد الذين يشعرون بالتقدير والرضا في عملهم مجتمعاً أصحًّا وأسعد.

ومن أجل تفعيل هذا التغيير؛ من الضروري القيام ببعض التعديلات في المنظور. على سبيل المثال، من اللازم تطوير مؤشرات بدائلة "للنجاح"، بعيدة عن المقاييس التقليدية للناتج المحلي الإجمالي Gross Domestic product (GDP) لأن الناتج المحلي الإجمالي يرتكز على النمو الاقتصادي فقط. طرحت بدائل مختلفة عديدة واختبرت. أحد تلك البدائل مؤشر السعادة العالمي Happy Planet Index (HPI)⁽¹⁾، وهو حساب يتأسس على الرفاهة الذاتية مضروبة في العمر المتوقع ومقسومة على البصمة البيئية [مقياس لتأثير الإنسان على النظام البيئي]. ينتبه هذا المؤشر إلى رغبة الناس في أن يعيشوا طويلاً، حيوات مثمرة، وينتبه كذلك إلى أهمية العيش باستدامة داخل محيطنا البيئي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) Kubiszewski (2014)

الذكاء في الأوساط الطبية

في المثالين المعروضين في بداية هذا الفصل، يتداخل الوسط الطبيعي مع قضيَّتي ريتا وكارل. من المعتاد، ألا تتوفر أي معلومات عن معامل ذكاء المرضى في أغلب الأوساط الطبية، إلا إذا جذب سلوك الشخص الانتباة وكشف عن معامل ذكاء منخفض بشكل غير معتاد. أطلق على هذا الأسلوب للتفكير -الذي يعتبر التَّعْرُف على معامل الذكاء المنخفض أمراً على علاقة وثيقة بما يجري، لكنه يصرف النظر بعامة عن معامل الذكاء المرتفع ويعتبره أمراً غير ذي بال- "انحياز الضعف العقلي" mental impairment bias. إنها واحدة من العواقب المفهومة لعصر الإنقاذه من القيمة. مع ذلك، لا يعتبر معامل الذكاء المرتفع للغاية أمراً غير ذي بال. أوضحت الأبحاث أن الارتفاع المفرط لمعامل الذكاء ("الدماغ الفائق" hyper brain) يرتبط بحساسيات فسيولوجية متنوعة ("الجسد الفائق" hyper body)⁽¹⁾. يعني هذا أن معامل ذكاء في المئين الثامن والتسعين وأعلى يُعتبر عامل خطورة محتمل للعديد من الحالات الفسيولوجية التي تتضمَّن استجابات حسية مرتفعة ومناعية والتهابية مغایرة. كم عدد الأطباء الذين يعرفون بهذا الأمر ويفكِّرون فيه؟ قد يكون الأطباء على الْفَة بتأثير الذكاء المنخفض على قدرة الشخص على الامتثال لنظام علاجي، ولكن هل يأخذون في اعتبارهم أنهم قد يحتاجون في حالة وجود ذكاء مرتفع إلى تعديل نظامهم العلاجي الذي يصفونه عادة بسبب الكفاءة الاستثنائية لنظام المريض العصبي؟

يصبح معامل الذكاء تحديًّا في مركز التفكير في الأوساط الطبية في الوقت الحالي في الحالات التي يكون عندها تقييم الأداء الإدراكي للشخص لازِمًا لتحديد مدى تأثيره عقب تعرضه لأمر قد يؤثُّر فيه،

(1) Karpinski et al. (2018)

مثل إصابات الرأس. أو إذا استُخدمت اختبارات الذكاء في حالات التدهور الإدراكي المرتبط بتقدُّم السُّنَّ مثل الخرف، من أجل تقييم ما إذا كان المصابون قادرين على العناية بأمورهم الخاصة. بغضِّ النظر عن هذه الحالات، يعني عدم النظر إلى معامل الذكاء بوصفه بعْدًا له تأثير أن الناس تُعالَج في العموم وفق أسلوب يفترض أن لهم معامل ذكاء متوسط. يعني هذا بغالبية السكان (انظر شرح منحنى الجرس في الفصل الثاني). إلا أنه لا يناسب أولئك الواقعين عند ذيَّال المنحنى.

يؤدي انحياز الضعف العقلي في الأوساط الطبية إلى تفسير غير دقيق للبيانات. على سبيل المثال، يُعتبر شخص ذو ذكاء مُفرط أصيـب بجلطة في المخ على ما يُرـام بعدهـا، لأنـه نـجـح بـسـهـولة في اختـبار بـسيـط لـمعـالـمـ الذـكـاءـ. إلاـ أنـ الحـزـن يـفـطـرـ قـلـوبـ كلـ المـحيـطـينـ بـهـذاـ الشـخـصـ لأنـهـمـ يـرـونـ مـقـدـارـ ماـ فـقـدـ مـنـ قـدـراتـهـ السـابـقةـ.

يشبه ذلك الحالات التي تتصل بالإدمان والمرض النفسي، وهما أمران مرتبطان بأحد هما الآخر (وأصحاب معامل الذكاء المرتفع عُرضة أكثر من غيرهم للأمرتين)⁽¹⁾. على سبيل المثال، أخبر طبيبُ نفسيٍّ شاباً أن تعاطيه للمخدرات وانهياراته الذهانية المتكررة المرتبطة بالتعاطي سوف تضرُّ بأداءه الإدراكي. أجري تقييم روتيني بعد ذلك، وضع الفتى في المئين السبعين. استقبل الطبيب النفسي هذا على اعتبار أنه خبر جيد، قائلاً: "يعني هذا أنك الاستثناء: ما مررت به لم يُعِق أداءك الإدراكي".

تكمـنـ المشـكـلةـ فيـ أنـ عـدـمـ اـمـتـلاـكـ تصـورـ منـ السـنـوـاتـ السـابـقةـ عـنـ النـقطـةـ التـيـ بدـأـ منهاـ هـذـاـ الشـابـ يـعـنـيـ أنـ تـقـيـمـ الطـبـيـبـ النـفـسـيـ لـيـسـ إـلـاـ اـفـتـرـاضـاـ،ـ قـائـماـ عـلـىـ منـحنـىـ الجـرسـ.ـ اـفـتـرـضـ الطـبـيـبـ النـفـسـيـ أـنـ الشـابـ لـمـ يـتـضـرـ لـأـنـ المـئـينـ السـبـعينـ أـعـلـىـ مـنـ الـمـتوـسـطـ.ـ إـلـاـ أـنـ الشـابـ

(1) Webb et al. (2016)

نفسه والمحيطين به يعرفون أن قدرته العقلية قد تضاءلت بالتأكيد. يطرح مساره قبل الانهيار أنه كان في المئين الثامن والتسعين لمعامل الذكاء أو أعلى، ولكن التحليل الموضوعي لما فقده مستحيل؛ لأنَّه لم يُخض أبداً اختباراً روتينياً يحدد النقطة التي بدأ منها، ولذلك مما فقده لم يُسجِّل طبِّياً أو يُستجاب له بفهم وتعاطف، كما لم يتَّصل التدخل المناسب. وبالإضافة إلى ذلك، حصل المريض على رسالة خاطئة، مفادها أنَّ أفعاله لم تكن مدَّمرة. كيف سيكون الحال، إذا أصبح معامل الذكاء في عصر التكامل معلومة روتينية يجلبها المريض معه عادة، كما يجلب فصيلة الدم، وإذا عوِّمل ببرجماتية وحيادية كما تُعامل الاختلافات في فصائل الدم؟

تُعتبر الصحة النفسية مساحة مرتبطة بالصحة الجسدية. انتبهنا منذ فترة طويلة إلى ارتفاع احتمالية إصابة ذوي الإعاقات العقلية بمشكلات الصحة النفسية⁽¹⁾، مثل الفصام. أكدَت الأبحاث مؤخراً وجود ترابط بين معامل الذكاء المرتفع للغاية وزيادة خطورة الإصابة ببعض الحالات النفسية مثل اضطراب فرط الحركة وتشتت الانتباه attention deficit hyperactivity disorder (ADHD) واضطرابات طيف التَّوحُّد autism spectrum disorder (ASD)⁽²⁾، والاضطرابات العاطفية⁽²⁾ disorders، وبخاصة اضطراب ثنائي القطب⁽³⁾. لا يقدم الطب النفسي وعلم النفس والعلاج النفسي والتدريب الإرشادي للممارسين معلومات عن علاقة مستويات الذكاء بالصحة النفسية. في مثال نموذجي على ذلك، يناقش مؤلف كتاب "الإرشاد النفسي ودورة الحياة"⁽⁴⁾ ضرورة الوعي بحاجة المراهقين إلى المساعدة إذا كانوا متأخرِين عن أقرانهم،

(1) Smiley (2005)

(2) Hemmings et al. (2018: 232)

(3) Gale et al. (2013)

(4) Sugarman (2004: 40)

وأنه من اللازم أن يتعلّموا التصدّي لصعوباتهم في التعلم. لا يأتي الكتاب على ذِكر أولئك المتقدّمين عن أقرانهم، والذين قد يحتاجون إلى مساعدة مماثلة ليتعلّموا التصدّي لبراعتهم في التعلم.

قد تساعد معرفة معامل ذكاء الشخص في تنبّيه ممارسِي الإرشاد النفسي إلى الأمور التي قد تكون وثيقة الصلة، وهو ما قد يساعد ويُسرّع التشخيص، ومع ذلك تتجاهل تلك المعلومة. ذِكر في كتيب ممارسِي الإرشاد النفسي؛ دليل للمرشدين والمعالجين النفسيين والإخصائيين النفسيين⁽¹⁾، سبعة أوجه مهمة للاختلاف الفردي؛ وهي: العرق والنوع والتوجّه الجنسي والطبقة والإعاقة والدين والعمّر. لا ذكر للذكاء. على الرغم من أنه بُعدُّ من أبعاد الاختلاف الفردي، يؤثّر بشكل جوهري في طريقة تعاطينا مع العالم، لا يُشار أمره في عُرف الاستشارات الطبية أو العلاجية باعتباره أمراً بارزاً يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار.

الذكاء في الأوساط القانونية

في سياق تعزيز القانون بداخل المجتمع، يعني احتضان التنوّع العصبي المعرفة بشأن صلة الذكاء بالإجرام والتَّدبُر في ذلك الأمر، وترجمته إلى ممارسة. على سبيل المثال، لأغلب الذين يُلقى القبض عليهم مُعامل ذكاء أقل من المتوسط. طُرِح مؤخّراً في عام 2018 أن دارسي العدالة الجنائية -الذين يُقال إنهم يتمتعون على الأرجح بمعامل ذكاء يفوق المتوسط- يتجهّزون لعملهم بصورة أفضل إذا مُنحوا فرصة التعامل مع ذوي مستويات الأداء العقلي المنخفض وفهموا ما ينطوي عليه هذا⁽²⁾.

(1) Moodley & Lubin (2008)

(2) استُشهد به في Warne et al. (2018)

تعترف أنظمة العدالة الجنائية بالفعل بأن الذكاء المنخفض للغاية أحد العوامل التي يجب أخذها في الاعتبار عند تقييم مسؤولية شخص تجاه جريمة ارتكبها. إذا ظُنِّ أن الشخص غير قادر عقلياً على أن يكون مسؤولاً عن جريمته -إذ نعتبره غير قادر على امتلاك معرفة أفضل بالأمور- فإنه لا يُقدَّم إلى المحاكمة بالطريقة نفسها. تُستخدم اختبارات معامل الذكاء لقياس الأداء العقلي من أجل تحديد المسؤولية الجنائية.

يجعل امتلاك الشخص معامل ذكاء قدره 70 أو أقل -وهو المدى الذي اعتُبر أنه يُشكّل إعاقة عقلية- منه مستحِقاً لما اصطلح على تسميته اتصال وتحويل العدالة الجنائية⁽¹⁾. يعني هذا أن خدمات مختلفة تُباشر بالاتصال فيما بينها والتعاون من أجل تحويل مثل هؤلاء المذنبين بعيداً عن المحاكم والسجون، نحو خدمات أخرى بدلاً من ذلك. ترتبط الخدمات البديلة المناسبة بالعلاج الصحي أو الرعاية الاجتماعية أو خدمات الدعم.

يشدّد هذا على الرصد والتدخل المبكرّين. يعني هذا أن المحتجزين يُعرِّبلون في مرحلة الاعتقال الشرطي. ومن أجل تنفيذ هذا؛ تحتاج الشرطة إلى أن تكون على وعي بالإعاقة العقلية. صدرت توصية⁽²⁾ بأن هذا الوعي يجب أن يكون مُكوّناً أساسياً في برامج تدريب طاقم العمل في نظام العدالة الجنائية كله، بما في ذلك الشرطة وضباط المراقبة والقضاء. ومرة أخرى، لا ذِكر للـ... لعلَّك خمنْتَ... للبراعة العقلية أو معامل الذكاء المرتفع للغاية في التوصيات.

من الصحيح أن الدراسات رسّخت أن زيادة الذكاء ترتبط مباشرة بتضاؤل الإجرام. إلا أنه نادراً ما يشار إلى أن هذه العلاقة تتغير عند

(1) Parkin et al. (2018)

(2) استُشهد به في Parkin et al. (2018)

مستويات الذكاء المرتفعة للغاية، ومن الواضح أنها معلومة غير معروفة. يزداد الإجرام في المئين الثامن والتسعين وأعلى. (رأينا في الفصل الأول الهروب المبتكَر لفرانك موريس صاحب مُعامل الذكاء المرتفع من ألكاتراز، كمثال على ما قد يتحققه الذكاء المفرط).

إن فهم المزيد عن أسباب هذا مهم. إنه تجلٌّ لمبدأ "التوازيات عند أقصى الطرفين"⁽¹⁾ parallels at the extremes في منحني الجرس للذكاء. يعني هذا أن الأفراد عند أقصى الطرف الأدنى وأقصى الطرف الأعلى للذكاء البشري قد يعانون من مشاكل متشابهة من حيث عدم تكيُّفهم مع عالم مُصمَّم لأصحاب الذكاء المتوسط.

تُعدُّ نظرية الرابطة الاجتماعية social bond theory النظرية المهيمنة في علم الجريمة فيما يخصُّ أسباب الانحراف، وترجع إلى عالم الاجتماع الأمريكي ترافيس هيرشي⁽²⁾. توضح كيف يتعرَّز السلوك الإجرامي نتيجة ضعف العناصر الاجتماعية الأربع التالية: التعلق (الروابط الوثيقة مع الآخرين)؛ الالتزام (تقدير أنظمة الامتثال الاجتماعي)؛ الإيمان (الاعتقاد في الأعراف الاجتماعية المألوفة)؛ المشاركة (الانهماك في أنشطة غير مسيئة والاستغراق فيها). يبرز كل من أصحاب معامل الذكاء شديد الانخفاض وشديد الارتفاع لأنهم مختلفون عن الغالبية ذات معامل الذكاء المتوسط؛ ولذلك يعانون من صعوبات في اكتساب القبول المجتمعي وتكوين علاقات وثيقة (تعلق ضعيف). لا يُقدِّرون الأنظمة الاجتماعية مثل المدارس (الالتزام ضعيف)؛ إذ إنها مُصمَّمة لتلبية احتياجات أصحاب معامل الذكاء المتوسط ولا تناسب بالشكل نفسه الأفراد الواقعين على أقصى طرفي الذكاء. يفقد هؤلاء الأشخاص إيمانهم في مغزى الروتين الطبيعي للحياة (إيمان ضعيف)،

(1) Silverman (2013: 86)

(2) Hirschi (1969)

إذ خاب أملهم فيه لأنه غير مصمّم جيّداً لأساليبهم المعتادة للأداء. لا يهتمون بالأنشطة المعتادة التي يهتم بها ذوو معامل الذكاء المتوسط (مشاركة ضعيفة); لذا قد يبحثون عن طرق بديلة لاستخدام وقتهم، وقد تتضمّن أنشطة مسيئة إذا أخذنا خيبة أملهم في الحسبان. تعرّف وسائل الدعم والخدمات البديلة التي تقدّم لهؤلاء المسيئين ذوي معامل الذكاء المنخفض بهذه المخاطر. ولكن ماذا بشأن ذوو معامل الذكاء المرتفع للغاية؟

يمزّ ذوو معامل الذكاء المرتفع للغاية بنظام مدرسي، يتّجاهلهم ويخلّهم، ولا يلبّي احتياجاتهم العقلية. يقودهم هذا إلى المراارة والضجر والشعور بأنّهم مرفوضون اجتماعياً، لا يجدون أي قناة لاستخدام قدرتهم المرتفعة في صالح المجتمع. لذلك؛ هل من الممكن أن يصيّر معامل الذكاء المرتفع عُذراً لارتكاب جريمة، لأنّ المسيئة كانت مُصابةً بضجر شديد وتتجاهلوا احتياجاتها؟

من المؤكد أن الشرطة والمهن الأخرى ذات الصلة يجب أن تلتقي تثقيفياً مماثلاً عن تداعيات الذكاء المرتفع للغاية ووسائل التعرّف عليه. في نظام عدالة جنائية يعتنق التنوع العصبي بشكل كامل، هل يُوظّف مسار الاتصال والتحويل البديل والمتعاطف والمتسامن اجتماعياً إذا اختُرِر المسيطر وكشف عن معامل ذكاء مرتفع بشدة؟ قضى المحتال الأسطوري فرانك أباجنيل -الذي نجح في التظاهر بأنه طيار على إحدى الخطوط الجوية، وطبيب، ومحامٍ، وسحب ملايين الدولارات مستخدماً شيكات مزوّرة⁽¹⁾- فترةً في السجن في فرنسا والسويد. بعد أن قضى 4 سنوات من حكم بالسجن لمدة 12 عاماً في الولايات المتحدة الأمريكية، أُجري اتفاق لمبادلة العمل لصالح فريق مكافحة الاحتيال في مكتب التحقيقات الفدرالي FBI بحكم السجن

(1) Abagnale & Redding (1980)

الموقَّع عليه. مَن أَفْضَلَ مَنْ يَعْرُفُ كِيفَ تَعْمَلُ عَقُولُ الْمُحْتَالِينَ؟ لَا شَكَّ أَنَّ الْحَصُولَ عَلَى شَخْصٍ لَهُ خَبْرَةُ أَبَا جَنِيلِ الْإِجْرَامِيَّةِ بَدَلًا مِنْ خَسَارَتِهِ خَلْفَ الْقَضْبَانِ، حَرْكَةُ ذَكِيرَةِ الْغَايَةِ. هَلْ مِنْ الْمُمْكِنِ إِجْرَاءُ الْمُزِيدِ مِنْ هَذِهِ الْاِتِّفَاقَاتِ؟

بِدَائِنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ نَسْتَكْشِفُ بِشَكْلٍ وَاسِعٍ مَا قَدْ يَبْدُو عَلَيْهِ احْتِضَانُ التَّنْوُعِ الْعَصْبِيِّ فِي أَرْبَعَةِ سِيَاقَاتٍ تَطْبِيقِيَّةٍ مُخْتَلِفةٌ. درسنا في الفصول السابقة علم النفس الكامن خلف المقاربات المختلفة للذكاء البشري على مَرْأَةِ العصور. نحتاج في المقام الأول من أجل تنفيذ أي أساليب جديدة مبتكرة للتفكير في الذكاء وممارسته في عصر التكامل الناشئ إلى فهم علم النفس الكامن من خلفه والتصدي له. يركز الفصل التالي والختامي على ذلك.

ختاماً

ما المقاربة التي تختارها؟

يشير مقال حديث في مجلة الذكاء إلى "التبّاعُونَ القائم بين إجماع العلماء بخصوص الذكاء ومعتقدات العامة عنه"⁽¹⁾. أمل أن يكون هذا الكتاب قد ساعد في التصدي إلى ذلك التباعين عن طريق رسم الكيفية التي وصلنا بها إلى هذا الوضع وتوضيح كيف عَقَدَت العوامل النفسية بناء المعرفة العلمية عن الذكاء البشري ومشاركتها. أدّت مُحفّزات واستجابات نفسية محدّدة إلى أسلوب المجتمع الغربي في مقاربة الذكاء البشري على مَرْأِ العصور، ووصلت بنا إلى حيث نحن الآن.

نستطيع دراسة التاريخ الذي غطّته الصفحات السابقة والجدال بشأن الأمور ذات الصلة والتغيرات الاجتماعية على المستويين الوطني والعالمي، إلا أن المعتقدات التي نتمسّك بها بشأن تأثير الذكاء على

(1) Warne et al. (2018: 45)

سلوكنا وقراراتنا ونحن نتفاعل مع بعضنا البعض في خلال أنشطتنا اليومية المعتادة تأتي على مستوى فردي. تمنحنا معرفة تاريخ الذكاء وعلم النفس الكامن خلفه فرصة الوعي بالدور الفاعل الذي يلعبه كلّ مِنَّا في اختيار مقاربتنا الشخصية نحو الذكاء. يبلور هذا الفصل الختامي النقاط الرئيسية في الكتاب ويتدبر في كيفية تنفيذ تبصراته ونحن نمضي في حيواتنا اليومية.

مقاربات الذكاء على مَرْ العصور

ثبتت أن العصرين الرئيسيين اللذين اكتشفناهما في أسلوب المجتمع الغربي مقاربة الذكاء قد كانا إشكاليين. شدّد عصر إضفاء المثالية، حقبة ما قبل الحرب العالمية الثانية، على أن الطبيعة فوق التنשئة وبلغ ذروته مع اليوجينيا. تكمن المشكلة الرئيسية لنظرية عصر إضفاء المثالية في تمييزها غير الإنساني ضد ذوي الذكاء المنخفض وإضافتها المثالية على ذوي الذكاء المرتفع. كما أنها لا تنظر بالتقدير نفسه إلى القوى غير الإدراكية ولا تدعُمَ من لا يؤدون جيداً في المؤسسات الأكاديمية التقليدية لكي يؤدوا على أفضل وجه يستطيعونه. بسبب هذا، غفلت عن ذوي الذكاء المرتفع مَمَن يعانون على سبيل المثال من عُسر القراءة أو التَّوْحُّد أو أي شذوذ آخر -أولئك الذين أصطلحنا على تسميتهم ذوي الخصوصية الثانية twice exceptionality أو ذوي -dual and multiple exceptionality الخصوصية المزدوجة والمتعلدة وأهملتهم.

شدّد عصر الإنقاص من القيمة، حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، على أن التنشئة فوق الطبيعة، وبلغ ذروته مع أطروحة الخبرة النقيدة. تكمن المشكلة الرئيسية في هذا أنه غير صحيح. لا يواجه حقيقة الاختلافات الفردية الفطرية في العقل. كما يخلق ثقافة

معاداة العقلانية، التي تسمح بالتمييز من دون رادع ضد ذوي الذكاء المرتفع للغاية. لا يعترف بذوي الذكاء المرتفع ولا يفهمهم ولا يدعمهم لكي يؤدوا على أفضل وجه يستطيعونه.

يبدو أننا بدأنا الدخول إلى عصر التكامل منذ عام 2015 تقريباً، نجد فيه توليفاً بين الطبيعة والتنشئة، واعترافاً أكثر رصانة وحكمة بتأثيرات العناصر الچينية والبيئية على الذكاء. يُشكّل التكامل المسار الأكثر إنسانية وواقعية نحو المستقبل، يعترف بالاختلافات الفردية في الذكاء، إلا أنه لا يمارس تمييزاً على صلةٍ بها. دافعت عن الاعتراف المباشر وغير التميزي بالذكاء والقبول به على اعتبار أنه ببساطة أحد الأوجه الكثيرة للتنوع البشري، وهو جزء من التنوع العصبي.

تجاوز انحياز الضعف العقلي

يتضح من منحنى الجرس للذكاء البشري (انظر الفصل الثاني) أن للغالبية العظمى من الناس مستوى متشابهاً للأداء العقلي؛ لذلك، فمن المنطقي تماماً أن يتوجه المجتمع بالدرجة الأولى نحو ما تريده غالبية السكان وتحتاج إليه ويكون في صالحها. تتأسس النظم والافتراضات في الحياة اليومية في الأوساط كافة -على سبيل المثال، التعليمية والمهنية والطبية والقانونية- على ما تتوقعه غالبية السكان ويناسبها. عندما يختلف البعض بدرجة كبيرة ملحوظة عن المتوسط، يرفضون توقعاتنا المألوفة ولا تناسبهم نظمنا المعتادة. ينطبق هذا على ذوي معامل الذكاء الأقل من 70 أو الأعلى من 130. تقع هذه الدرجات عند أقصى الطرفين المتقابلين لمنحنى الجرس.

رأينا توازيات فيما بين هذين الطرفين من حيث التداعيات التي تصيب هؤلاء الأفراد الذين لا يتوافقون مع أعراف المجتمع، سواء كان ذلك بسبب أدائهم الفكري المنخفض للغاية أو المرتفع للغاية،

عن المتوسط. رأينا كذلك أن المجتمع صار أكثر وعيًا بالإعاقات العقلية وتسامحًا معها كما أجرى مWAREES من أجل تدبير حاجاتها في الكثير من مساحات الحياة، إلا أن الأمور على خلاف ذلك فيما يتعلق بالبراعة العقلية. يعترف انجياز الضعف العقلي بالاحتياجات الخاصة لذوي الذكاء المنخفض للغاية، لكنه لا يعترف باحتياجات ذوي الذكاء المرتفع للغاية. من المفهوم أن تميل الحياة المعاصرة نحو هذا الموقف الخاص بعصر الإنقاص من القيمة؛ إذ إنه آخر عصور مقاربة المجتمع الغربي للذكاء. ولكي نُجري تحسينًا عامًّا على ذلك؛ علينا أن نتذكر التوازيات عند أقصى الطرفين ونستشعرها ونستجيب لها.

اختيار مقاربتنا نحو الذكاء في حيواناتنا اليومية

رأينا كيف تسبّب عصر إضفاء المثالية وعصر الإنقاص من القيمة في أن يصير الذكاء موضوعًا جدلًّا ومهمًّا. رأينا في الفصل السابق كيف كانت الأمور تختلف بالنسبة إلى كارل وأحبابه، وكيف كان المحيطين بريتا ليفهموا وضعها بشكل أفضل، إذا اعترفنا بالذكاء في افتتاح وتحديثنا عنه وفق معلومات دقيقة في تعاطف ومن دون تمييز. وكيف كانت الأمور تختلف بالنسبة إلى إيدا (من الفصل الأول) إذا اختلف أسلوب مقاربة الذكاء؟

عندما اعتادت إيدا الهروب من المدرسة، فسرّ معلمها سلوگها على اعتبار أنه يعني أنها "متسرّبة اجتماعية". لم يفصل بين معوقاتها الاجتماعية وبنيتها الفردية. ربط بين السلوك الفوضوي غير الممتشل وبين الافتقار إلى الذكاء؛ وبالتالي لم يفشل في تنمية جبها للبيولوجيا فقط، بل ثبّط من عزيمتها وأثناها عن أن تبذل مجهودًا في هذا الخصوص. أعمته أحکامه المسبقة عن إمكاناتها. يُعتبر تلقّي المعلمين والطلاب والآباء لتعليم أفضل بخصوص الذكاء تطُورًا إيجابيًّا، إذ لن

يتوجب على من أشرف عليهم (في مقدمة الكتاب) حينها أن يشعروا بالخجل من ذكائهم ولن يتوجب على الأشخاص مثل إيدا أن يشعروا بالخوف منه.

إذا لاحظنا كيف ننظر إلى أنفسنا وإلى الآخرين فيما يتعلق بالذكاء، يمكننا أن نختار ما الذي نفعله بهذا الخصوص. ربما تكون أنت إيدا أو ريتا أو كارل. أو ربما تري أحدهم أو متزوج من أحدهم أو صديق لأحدهم أو تدرس لأحدهم أو تعمل مع أحدهم. هذا هو السبب وراء أن مقاربتك للذكاء مهمة. يمكننا أن نبدأ بشكل مفيد بالنظر في أفكارنا وسلوكياتنا اليومية لتنتبه إلى المقاربة التي تؤثر فيها وإلى أي عصر ترجع.

أفكر يومياً في الطريقة التي أقارب بها الذكاء، على سبيل المثال، تلقيت بريداً إلكترونياً من طالب يطلب أن يقابلني ليحصل على رأيي من أجل تحسين مقاله الذي سلمه مؤخراً. بحثت عن المقال في نظامنا الرقمي. وجدت أن المقال حصل على درجة امتياز. لاحظت أنه تملّك مني في التّوّ شعور بالاستنكار؛ لماذا يسأل عن كيفية تحسين المقال، في حين أنه حقق أعلى شريحة من شرائح الدرجات بالفعل؟ وفجور أن وجدت هذه ردّة الفعل مني، أدركت أنها تعود إلى تفكير عصر الإنماض من القيمة، الذي نولي فيه انتباها لأولئك الذين يcabدون فقط لكي نحسن من أدائهم. إنني مؤيدة قويّة نظرياً للأخلاقيات عصر التكامل، أؤمن أن الطلاب في كل شرائح الدرجات يستحقون دعماً متساوياً من أجل الاستمرار في التحسن، ولكنني عندما الممارسة تسرّعت في ردّة فعلٍ، وفكرة: "كم هذا بلا ضرورة" عندما أدركت أن الطالب يرغب في إدخال تعديلات على مقال بعد أن حصل على درجة الامتياز. يوضح لنا هذا كيف قد نعكس بسهولة انحيازاتٍ داخليةً من مقارب العصور السابقة للذكاء، وذلك على الرغم من

تحلّينا بأفضل النوايا. نحتاج إلى الاعتراف بهذا والتصدي له إذا أردنا إحداث تغيير.

يمكّنا أن نبدأ بلاحظة أساليب العصور المختلفة للتفكير في الأشياء التي نسمعها ونراها ونقرؤها. على سبيل المثال، قرأت مؤخرًا مقالاً بحثيًّا عما إذا كانت مستويات الذكاء كافية تسهم بالتساوي في النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي^(١). خلص المقال إلى أن ذوي معامل الذكاء المرتفع يساهمون بالقدر الأكبر. أدركت في التو كيف يمكن لهذا الاكتشاف أن يحفّز بسهولة تفكير عصر إضفاء المثالية، على غرار النظر إلى ذوي معامل الذكاء المرتفع باعتبارهم الجديرين بأسمى درجات التقدير لأنهم أكبر المساهمين في مساعي (النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي) التي نعتبرها حاليًّا بشكل واسع أمرًا مهمًّا ومرغوبًا. إلا أن ترياق هذا التفكير يتمثل في الحفاظ على منظور شامل، يتضمّن المنظور البيئي. ربما تفييد المعلومات الواردة في المقال الأهداف المتعلقة تحديًّا بالنمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي. لكننا قد نعترف كذلك بحدودية قيمة النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي والصعوبات المصاحبة لهما.

التضمين

يحتوي الاقتصاد الذي يعمل بكامل طاقته على الكثير من الأدوار الوظيفية المختلفة التي تحتاج إلى أن يشغلها أفراد يقدرون على مستويات مختلفة من التحدّي العقلي. تستلزم الحياة في القرن الحادي والعشرين التقييم العادل للأفراد المتنوعين ذوي الاحتياجات المتنوعة من أجل تحقيق أهداف المجتمع المتنوعة. إذا اعترفنا بكل مستويات

(1) Burhan et al. (2014)

القدرة العقلية ودعمها جيداً بالتساوي لكي تزدهر، ووفقاً بين الأفراد والأدوار المناسبة لهم تماماً وقدرنا إسهامات كل الأدوار؛ فقد يؤدي هذا إلى تحسين كفاءة ورفاهة الجماعات البشرية كافة. عندما يشعر الأفراد بالأمان، وبأن احتياجاتهم ملبياً؛ يستطيعون أن يكونوا منفتحين وكراماً تجاه الآخرين.

من الممكن تقييم القدرة في أيٌّ من مسارات الحياة وبواسطة أيٌّ من الأساليب، وإذا أردنا زلزلة الارتباطات السلبية لذلك النوع من التقييم الموروثة من عصور سابقة، نحتاج إلى الاعتراف بجوانب التقييم النفسية الاجتماعية والعمل بها. يميل الناس إلى التقسيم إلى "جيد" في مقابل "سيئ". ولكي يكون التقييم بناءً، لا باعثاً على الفرق؛ نحتاج إلى أن ننتبه في نهاية إلى السلوكيات واللغة لكي يساعداننا على تجاوز ردود الفعل التي تضفي المثالية أو تنقص من القيمة.

يتضمن "اختبار الذكاء الذكي"⁽¹⁾ اعترافاً بفائدة الاختبارات، لكنه يعترف كذلك بحدودها، لا يفرط في تعليم نتائجها، ولا يعتبر النتائج "نقشاً على الحجر". أوضحت كارول دويك أهمية التمسك بعقلية النمو، لا العقلية الثابتة فيما يتعلق بالذكاء⁽²⁾، من أجل تشجيع الجهد والتطور الفرديين والتشديد على أن مسار حياة الشخص لا يحدده تقييم واحد فقط. إلا أن للنمو حدوداً؛ يحدد الحمض النووي "مدى الاستجابة" (انظر الفصل الرابع). قد توفر نتائج معامل الذكاء انطباعاً عن مدى الاستجابة الخاصة بالشخص، خصوصاً عندما تقع النتيجة بداخل أيٍّ من أقصى طرفي منحنى الجرس. على سبيل المثال، رأينا في الصفحات السابقة أن معامل الذكاء المرتفع للغاية يرتبط بصعوبات مع أنظمة التعلم العامة، وبعمر افتراضي أطول، وحياة

(1) انظر Kaufman (2009)

(2) Dweck (2006)

ترتفع فيها مخاطر ارتکاب الجرائم، وحساسية فسيولوجية ونفسية مفرطة، وزيادة العُرضة لحالات جسدية ونفسية معينة؛ لذلك ثبت أن التعرف على معامل الذكاء المترفع للغاية مفيدٌ، ويساعد على تحديد المخاطر، وتقديم تشخيصات دقيقة، وتوفير الاحتياجات في الأوساط التعليمية والمهنية والطبية والقانونية. إذا حافظنا على عقلية النمو، وإذا أصبح الخوف من التمييز شيئاً من الماضي؛ فقد تسهم نتائج معامل الذكاء بمعلومات أساسية مفيدة.

أما فيما يتعلق بما نفعله ببيانات الاختلافات الفردية مثل نتائج معامل الذكاء، أعتقد أن مقاربة تيدمان تحمل مفتاحاً مهماً لإطلاق عصر التكامل. لعلك تذكر الطريقتين المختلفتين اللتين تعامل بهما مورتون وتيدمان مع مجموعات البيانات التي جمعها كُلُّ منها عندما قاسا أحجام الجمامجم البشرية (انظر الفصل الرابع). لن نستخدم مجموعات البيانات من اختبارات معامل الذكاء لمقارنة المتوسطات بين الجماعات السكانية المختلفة. إنها مقاربة مورتون. يمكننا عن طريق استخدام مقاربة تيدمان التعرف على وجود مدّى لنتائج مختلفة لمعامل الذكاء في أي مجموعة من البشر، ولا يهم الأساس الذي نُقسّم المجموعات بناء عليه.

تزداد صعوبة تبرير التقسيم إلى مجموعات، نظراً إلى أن الحياة في القرن الحادي والعشرين تتضمن تقاطعاً بين الجنسيات والأعراق والطبقات. يستتبع هذا أن الفئات المنفصلة لم تُعد مثلما كانت من قبل. على سبيل المثال، يمكننا عن طريق تتبع مثال تيدمان إنشاء تضمين أكبر، بعيداً عن التفكير في اختلاف المجموعات في مجال الذكاء (أو أي مجال). بدلاً من الممارسة الباعة على الفُرقة لتقسيم البشرية إلى مجموعات فرعية، هل يمكننا أن نرى أنفسنا مجموعة بشرية واحدة، كلاً واحداً، ونركز على كيفية الاستجابة على أفضل وجه لل لدى الكامل للتنوع الذي نجده بداخل المجموعة البشرية الكاملة؟

أوضحت الأبحاث (انظر الفصل الرابع) أن المؤسسات التي تدمج تنوعاً بشرياً أكبر تحقق نجاحاً أكبر. لكننارأينا كذلك أن الأطر والتشريعات الحالية المختلفة المعنية بالتنوع، لا تذكر الذكاء الذي يُعدُّ جانباً جوهرياً من جوانب التنوع البشري، ذا تأثير كبير. يعزز تضمين التنوع العصبي في كل الأطر المماثلة، من عصر التكامل فيما يتعلق بالذكاء البشري.

إلا أن زيادة التنوع لن تعمل ببساطة عن طريق الإلقاء بمجموعات من البشر معًا. فور أن يوضعوا معًا، يجب أن يكونوا قادرين على التواصل معًا بفعالية. إذا لم يدعم التضمين من أجل خلق إحساس بالأمان والقبول والانتفاء بالرغم من الاختلافات، يقع الناس بسهولة فريسة لسلوكيات التمييز إلى جماعة داخلية/ جماعة خارجية. يرجع هذا إلى أن المبادئ النفسية للأمان تقترب بالتشابه والمبادئ النفسية للخطر تقترب بالاختلاف.

الأمان والتشابه، الاختلاف والخطر

إن البشر مبرمجون چينياً للبحث عن الأمان منذ الطفولة عن طريق بناء علاقات آمنة مع الرعاة المهمّين. نؤمن أماننا كذلك من خلال السعي إلى الانتماء إلى مجموعة من الآخرين الذين نستطيع أن نعمل معهم لضمان الحصول على الموارد والحماية اللازمين للبقاء. يتمثل أحد العناصر الأساسية اللازمة لتكوين العلاقات والمجموعات في السعي نحو مشابهة الآخرين. يعزز حبُّ مشابهة الآخرين - الذي اصططلحنا على تسميته "هُموفilyا"⁽¹⁾ - من إحساسنا بالأمان بصحبة الآخرين: نشعر أننا نعرف ما نتوقعه من الآخرين

(1) Ingram & Morris (2007)

عندما يكونون مشابهين لنا، نشعر أننا نستطيع الوثوق بهم، وعندما تكون معهم - مع جماعتنا الداخلية- نشعر أننا في منطقة الراحة. تنشأ العادات من الاختلافات: يرتبط الخطر في حياة أسلافنا وفي حياتنا المعاصرة بالاختلاف. يتصف أولئك الذين لا نشعر بالانتماء لهم بالاختلاف عنّا، ويصبحون الجماعة الخارجية.

تُعتبر القدرة الإدراكية إحدى مساحات أدائنا اليومي المحورية، وهي واحدة من المساحات التي نسعى إلى مشابهة الآخرين فيها.رأينا (في الفصل الأول) كيف يشكل مبدأ التوافق في الذكاء جانباً مهماً لكيفية اختيار الأصدقاء والأحباء والموظفين والقادة في العمل. حيثما نجد اختلافات كبيرة في الذكاء بين الأفراد، نحتاج إلى التثقيف وبذل الجهد من أجل أن نتمكن من فهم ما ينطوي عليه هذا، وكيف نصلح ميلنا الهموفيلية حتى لا نرفض الاختلاف تلقائياً بداعٍ تحقيق الأمان وتجنب الخطر.

انتبه للجوة

عندما نواجه فجوة واضحة في الأداء العقلي بيننا وبين شخص آخر، نحصل على فرصة اختيار كيفية الاستجابة لهذا. على سبيل المثال، إذا تصورنا أن أحدهم عقري، هل نكتشف أننا شعرنا بالتهديد؟ هل ينطوي الأمر على تهديد حقيقي؟ هل من الممكن أن ننتبه إلى خطر الشماتة "Schadenfreude"، أن يغويانا التعامل بدھاء (أو الأسوأ) أن نفسد شيئاً يخص ذلك الشخص؟ هل من الممكن أن نحيّد هذا ونحاول في عزم التّعاطف مع ذلك الشخص، معتبرين أن التعاطف مع الأشخاص الذين نراهم أسوأ منا بشكلٍ ما أسهل كثيراً؟

حتى لو لم نشعر بأي تهديد بالخطر، من الممكن ببساطة أن نجد إزعاجاً في مواجهة فجوة عقلية كبيرة. بحثنا في الفصل الخامس تحديداً

في شأن سياقات مختلفة، قد تلتلاقى فيها مستويات مختلفة لمعامل الذكاء والتداعيات التي قد تنشأ عن ذلك. قد يكون من المفيد أن ننتبه إلى هذا في حيواناتنا اليومية؛ انتبِهُ للفجوة! على سبيل المثال، أصدرت مؤسسة البالغين الموهوبين "Gifted Adults Foundation" في هولندا نشرةً عمّا يكون عليه الحال عند زيارة شخص ذي معامل ذكاء مرتفع للغاية للطبيب⁽¹⁾. توضح النشرة أن الاستشارة قد تسير بشكل سيئ لأن الأطباء قد لا يرحبون بالتعامل مع التساؤلات المميزة للمرضى ذوي معامل الذكاء المرتفع وبحثهم المستقل ونفورهم من القبول بسلطة الطبيب، ينزعج الأطباء من ذلك كلّه.

قد تكون الاستشارة في حالة المريض ذي معامل الذكاء المنخفض للغاية مزعجة أيضًا لأسباب مختلفة. قد يجد الأطباء أنه من الصعب أن يجعلوا أنفسهم مفهومين للمريض، أو أن يتباينوا مع الإطار المرجعي للمريض. يمكننا عن طريق فهم الكيفية التي تستجيب بها عندما نواجه اختلافًا ونستعد له أن نتحمّل بصورة أكبر فيما تُسفر عنه المواجهة.

تعليقات ختامية

إذا أحబبنا، من الممكن أن يصبح إطار "الصور الثلاثة" أداةً للتقييم النقدي لما نمرّ به، من أجل اختيار ما نرغب في أن نفعله به أو بخصوصه. قد تجد أنه من المثير للاهتمام أن تراقب رجال التعليم وصناع السياسات والباحثين في مجال الذكاء والكتاب، وأن تفكّر في العصر الذي تنتهي إليه طرائقهم في التفكير، بغضّ النظر عن التاريخ الزمني الذي أنجزوا فيه عملهم. (على سبيل المثال، أرى أن تيدمان

(1) IHBV (2016)

مفَكِّرٌ ينتمي لعصر التكامل نظراً لسلوكياته ومقاربته، على الرغم من أنه أنجز عمله في القرن التاسع عشر، وأنني حَدَّثُ البداية الزمنية لعصر التكامل في القرن الحادي والعشرين). ذكرت في نهاية هذا الكتاب تحت عنوان "قراءات إضافية" عدداً من الكتب، جمعتها معَا وفق العصور التي أرى أنها تمثلها.

تمثل رؤيتي لعصر التكامل المستقبلي في أن يفهم أشخاص مثل إيدا وريتا وكارل بشكل أفضل، وأن يتحول الذكاء من موضوع مثير للنزاع ومستفز، من الممنوع تقريباً ذِكرُه، إلى أمرٍ مُمْكِنناً مواجهته واحتضانه بانفتاح أكبر. خلال مقابلاتي البحثية مع أشخاص ذوي معامل ذكاء مرتفع للغاية، أخبرني الكثيرون كم هو غريب - ومع ذلك مفيد - أن يتمكّنوا من الحديث عن ذلك البُعد البارز - ومع ذلك خفيٌّ بشكل متناقض - للاختلافات الفردية في الأداء العقلي. منذ خروج أول كتابي للنور، تلقّيتُ الكثير من رسائل البريد الإلكتروني من قرّاء، فتح لهم الكتاب بوابات سدود العواطف والذكريات والمعنى. عَبَّروا عن الراحة التي شعروا بها إزاء الانتباه إلى شيء مهم في حياتهم واستيعابه، اختبروا أنه من الممكن إذ فجأة أن يبدأوا في استكشاف هذا الموضوع المحظور في السابق. تدور ممارستي المهنية بوصفها معالِجاً نفسياً، حول التصدي للمحاورات الصعبة. من تلك المحاورات سيئة السمعة من فرط صعوبتها المحاورات التي تتضمن الحديث عن المال والجنس والسياسة. أمّا دعوتي فهي: فلنتحدّث عن الذكاء!

يطرح هذا الكتاب إطاراً بسيطاً للنظر إلى تاريخ المجتمع الغربي وحاضرها ومستقبله المتوقع فيما يتعلق بموضوع الذكاء البشري. استكشف الكتاب علم النفس الكامن وراء مقاربتنا للذكاء، وشدد على أننا نحتاج إلى التصدي إلى علم النفس ذلك، إذا أردنا أن نجتنب ببساطة مشكلات الحقب السابقة المتكررة. أذهب إلى أننا بتحوّلنا عن عصر إضفاء المثالية وعن عصر الإنقاذه من القيمة كذلك، بصدق نضج

مقاربتنا للذكاء عن طريق احتضان عصر التكامل. يتضمن هذا إنهاء التمييز فيما يتعلق بالذكاء البشري والتأسيس لأخلاقيات، يُدعَم فيها كل البشر وتُدعَم كل أدمة البشر لتؤدي على أفضل نحو تستطيعه لأجل صالح الجميع. وبينما نمضي جمِيعاً في حيواتنا اليومية، يمكننا أن نلاحظ علامات مقارببات عصر إضفاء المثالية وعصر الإنقاوص من القيمة وعصر التكامل من حولنا، وأن ننتبه إلى الاختلافات فيما بينها. ويستطيع كل واحد منّا أن يختار المقاربة التي يتخذها تجاه الكيفية التي يتفاعل بها مع الذكاء البشري أو يتحدث عنه أو يتتجاهله.

قراءات إضافية

تَرِد المنشورات التي أشرت إليها في جميع أنحاء هذا الكتاب في قائمة المراجع في نهاية الكتاب، وهي توفر الكثير من القراءات الإضافية. مع ذلك، أورد هنا عدداً من الكتب المرتبة زمنياً، أرى أنها مُمثلة لوجهات نظر العصور المختلفة التي أوضحت خطوطها العريضة، تكشف الكتب عن مقدار التباهي الشديد في وجهات نظر العصور المختلفة. أشدد على أنني لا أتفق مع وجهات نظر الكتب الواردة تحت عنوان عصر إضفاء المثالية أو عصر إنقاص القيمة، ولا أوصي بها. أدعم شخصياً أخلاقيات عصر التكامل؛ وهكذا، فإنني أوصي بالكتب الواردة تحت ذلك العنوان.

Galton, F. (1869). Hereditary Genius: An Inquiry into Its Causes and Consequences. London: Macmillan.

Goddard, H. H. (1912). The Kallikak Family: A Study in the Heredity of Feeble-Mindedness. New York: Macmillan.

عصر الإنقاص من القيمة

Kamin, L. (1974). The Science and Politics of IQ. New York: Routledge.

Gould, S. J. (1981). The Mismeasure of Man. New York: W. W. Norton & Company.

Stobart, G. (2014). The Expert Learner: Challenging the Myth of Ability. Berkshire, UK: Open University Press.

عصر التكامل

Silberman, S. (2015). Neurotribes. Melbourne, MAM: Allen & Unwin.

Haier, R. J. (2017). The Neuroscience of Intelligence. Cambridge: Cambridge University Press.

Hambrick, D. Z., Campitelli, G. & Macnamara, B. N. (Eds.). (2018). The Science of Expertise. New York: Routledge.

Falck, S. (2020). Extreme Intelligence: Development, Predicaments, Implications. London: Routledge.

نبذة عن المؤلفة

سونيا فالك

محاضرة بجامعة شرق لندن في بريطانيا، ومعالجة نفسية حاصلة على اعتماد المجلس الثقافي البريطاني للعلاج النفسي، ومتخصصة في تقديم المشورة للبالغين ذوي القدرات الفكرية العالية حول العلاقات.

أحمد سمير سعد

مدرس التخدير والرعاية المركزية وعلاج الألم. حاصل على الدكتوراه في التخدير والرعاية المركزية وعلاج الألم والدبلوم الأوروبي في التخدير. يكتب القصة والرواية وترجم العديد من الكتب في العلوم وفلسفتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa



سيكولوجية
كل شيء

سيكولوجية الذكاء

ما الذي يدهشنا في الذكاء؟ كيف يؤثر الذكاء على حياتنا اليومية؟
ولماذا نخاف أحياناً من الذكاء؟

الذكاء الشعري مسود حيوي، إلا أن دراسته بخصوصها الإهمال والمفاهيم الخاطئة. يساعدنا كتاب "سيكولوجية الذكاء" على فهم المواقف والمعارضات الاجتماعية المتناقضة فيما يتعلق بموضوع الذكاء، والتي شهدناها على مر العقود، بدءاً من التصورات التي قادت إلى سياسات وإجراءات تحسن النسل في الماضي، وحتى رد فعلنا الحالي ضد "الخبراء" والتفكير النقدي. يوضح الكتاب كيف يؤثر نهجنا في التعامل مع الذكاء على حياتنا اليومية، في البيئات التعليمية والمهنية والطبية والقانونية، ويسأله عما إنما كان من السمن رفع المحاذير وتجاوز التحيزات المحيطة بالذكاء.

مكتبة
الجامعة
البلدي

977-894-085-5



8940855

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتوى